

الدرس الخامس والأربعون:

خلق التقوى

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع بنت بائعة اللبن مع عمر الخطاب ؓ، ففي جوف الليل، وبينما عمر الخطاب ؓ يسير في سكك المدينة يراقب أحوال الناس، أصابه إعياء، فاتكأ على جانب جدار، فإذا بامرأة تقول لابنتها: يا بنيتاه قومي إلى اللبن فأمزجيه بالماء قالت لها: يا أماه أما علمت أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ نهى عن ذلك؟ قالت الأم: يا بنيتاه قومي إلى اللبن فامزجيه بالماء فإن عمر لا يرانا.

قالت الفتاة: يا أماه، إن كان عمر لا يرانا، فإن رب عمر يرانا.

أعجب عمر ؓ بهذه الفتاة التقيّة، فقال لغلّامه أسلم الذي يسير معه: يا أسلم، علم الباب واعرف الموضع، ثم مضيا في سيرهما، وفي الصباح قال عمر ؓ: يا أسلم امض إلى الموضع فانظر القائلة، ومن المقول لها، وهل لهما رجل؟

عاد أسلم يخبر عمر ؓ أن الفتاة بكر لم تتزوج، وهذه أمها، وليس لهما رجل. فدعا عمر أولاده وقص عليهم الأمر ثم قال: هل فيكم من يحتاج إلى امرأة فأزوجه؟ ولو كان بأبيكم قوة إلى النساء ماسبقه منكم أحد إلى هذه الفتاة. فقال عبد الله: لى زوجة. وقال عبد الرحمن: لى زوجة، وقال عاصم: يا أباي لا زوجة لي فزوجني. فبعث عمر ؓ إلى الفتاة، وزوجها من عاصم فولدت لعاصم بنتا، فكانت أما لعمر بن عبد العزيز رحمه الله أعدل بني مروان وخامس الخلفاء الراشدين (٤٠).

ويأمر الله تعالى عباده بتقواه فيقول: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} (١٠٢) [آل عمران: ١٠٢].

وأيضاً فإن الله تعالى يأمر عباده المؤمنين بتقوى الله وأن يتقربوا إليه بالطاعات والأعمال الصالحة والجهاد في سبيل الله حتى يفوزوا بالجنة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣٥)} [المائدة: ٣٥].

وكذلك يأمر الله تعالى عباده المؤمنين بتقوى الله وملازمة القول السديد في جميع الأحوال والشؤون الموافقة للصواب خالياً من الكذب والباطل.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً (٧٠)} [الأحزاب: ٧٠].

إخوتي في الله، وهناك أشياء تعين على تقوى الله نذكر منها :

١ - محبة الله عز وجل من أعظم أسباب التقوى، فلقد نصحت إحدى الصالحات من السلف بنيتها فقالت لهم: " تعودوا حب الله وطاعته فإن المتقين ألفت جوارحهم الطاعة فاستوحشت من غيرها، فإذا أمرهم الملعون - أي الشيطان - بمعصية، مرت المعصية بهم محتشمة فهم لها منكرون ".

٢ - أن يدرّب العبد نفسه على المراقبة وأن يستشعر اطلاع الله عز وجل عليه فيستحي عند ذلك من المعصية ويجتهد في الطاعة. قال الله تعالى: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} [الحديد: ٤].

٣ - معرفة ما في سبيل الحرام من المفسد والآلام فليس في الدنيا والآخرة شر وداء إلا وسببه الذنوب والمعاصي.

٤ - أن تتعلم كيف تغالب هواك وتطيع مولاك.

٥ - معرفة مكائد الشيطان ومصائده، قال العلامة ابن مفلح المقدسي رحمه الله: اعلم أن الشيطان يقف للمؤمنين في سبع عقبات، عقبة الكفر، فإن سلم منه ففي عقبة البدعة، ثم في عقبة فعل الكبائر، ثم في عقبة فعل الصغائر، فإن سلم منه ففي عقبة فعل المبيحات فيشغله بها عن الطاعات، فإن غلبه شغله بالأعمال المفضولة عن الأعمال الفاضلة، فإن سلم من ذلك سلط عليه الأعداء الفجرة بأنواع الأذى (١٦).

معاشر الإخوة، ومن صفات المتقين:

١ - أنهم يؤمنون بالغيب، ويطيعون الصلاة، وينفقون مما آتاهم الله، ويؤمنون بالكتب المنزلة، ويؤمنون بالآخرة، قال الله تعالى: {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ} [البقرة: ٢ - ٤].

٢ - أنهم يعفون ويصفحون، كما قال تعالى: {وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى} [البقرة: ٢٣٧].

٣ - لا يقارفون الكبائر ولا يصرون على الصغائر، فهم غير معصومين من الخطايا إلا من عصمه الله تعالى من الأنبياء، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠١].

٤ - أنهم يتحرون الصدق، فهم أصدق الناس إيماناً وأصدقهم أقوالاً وأعمالاً وهم الذين صدقوا المرسلين، قال تعالى: {وَالَّذِي جَاء بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ} [الزمر: ٣٣].

٥ - أنهم يعظمون شعائر الله، قال الله تعالى: {ذَلِكَ وَمَن يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ} [الحج: ٣٢]، قال القرطبي: الشعائر جمع شعيرة وهي كل شيء لله تعالى فيه أمر أشعر به وأعلم.

٦ - أنهم يتحرون العدل ويحكمون به ولا يحملهم بغض أحد على تركة، قال الله تعالى: {وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: ٨].

٧ - أنهم يتبعون سبيل الصادقين من الأنبياء والمرسلين وصحابة سيد الأولين والآخرين ﷺ، قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة: ١١٩] (١٦).

إخوتي في الله، لقد ذكر الله تعالى في كتابه ثماراً مختلفة للتقوى نذكر منها:

١ - محبة الله تعالى، قال تعالى: {بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ٧٦].

٢- سبب لعون الله ونصره وتأيدته، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} [النحل: ١٢٨].

٣- حصن الخائف وأمانه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأعراف: ٣٥].

٤- تبعث في القلب النور وتقوي بصيرته فيميز بين ما ينفعه وما يضره، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} [الأنفال: ٢٩].

٥- تعطي العبد قوة لغلبة الشيطان، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ} [الأعراف: ٢٠١].

٦- توسيع الرزق وفتح مزيد من الخيرات، قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الأعراف: ٩٦].

٧- تفريج الكرب وتيسير الأمور، قال تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا} [الطلاق: ٢].

٨- أن العاقبة للمتقين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [القصاص: ٨٣].

٩- أنها أفضل ما يتزود به العبد في طريقه إلى الله، قال تعالى: {وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ} [البقرة: ١٩٧].

١٠- كل علاقات الأخلاء تنتهي يوم القيامة إلا علاقات المتقين، قال تعالى: {الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ} [الزخرف: ٦٧].

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

الدرس السادس والأربعون: خلق اليقين والتوكل على الله

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة عروس النيل، لما فتح القائد " عمرو بن العاص " مصر منع عادة عروس النيل التي تقضي بإلقاء فتاة شابة مزينة بالحلي في النيل ليفيض عليهم، فتوقف النيل عن الجريان لمدة ثلاثة شهور، فأرسل عمرو بن العاص إلى عمر ~~رضي~~ ليستشيره، فأرسل يقول له: حسناً فعلت وأرجو أن تلقي في النيل رسالتي التالية: " هذه رسالة من عمر ابن الخطاب إلى نيل مصر أما بعد، فإن كنت تجري من لدن الله فنسأل الله أن يجريك... وإن كنت تجري من لدنك، فلا تجري فلا حاجة لنا بك "، فجرى النيل وفاض! (٢٠).

معاشر الإخوة، اليقين منزلة يحبها الله تبارك وتعالى، ويريد من عباده أن يبلغوها، ولهذا يقول الله ﷻ: {كَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} [الأنعام: ٧٥]، فأبراهيم عليه السلام كان مؤمناً بدليل أنه الله تعالى قال في الآية التي قبلها: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرِزْ أَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلهةً إِنَّي أَرَكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} [الأنعام: ٧٤]، لكن الله أراد أن يزيده إيماناً بهذا، وأن يجعله من الموقنين، وهي درجة عليا ومرتبة عظمى، فجعل الله سبحانه وسيلة ذلك أن يريه ملكوت السماوات والأرض، فبعد أن أيقن واستيقن به، جزم جزمًا قاطعاً أن قومه على ضلالة وتبرأ منهم، ورفع الله تبارك وتعالى حجته عليهم، ودحض شبهاتهم، وأيقن أن الأمن والاهتداء لا يكون إلا للمؤمنين، ولا حظ فيهما لأحد من المشركين.

وهذا يشابه أيضاً قول الخليل عليه السلام: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمُنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيُطَمِّنَ قَلْبِي} [البقرة: ٢٦٠]،

فهي أيضاً زيادة في اليقين والاطمئنان، ولعلنا نتساءل: كم كان مقدار اليقين الذي كان عند الخليل إبراهيم عليه السلام، لقد أمر إبراهيم عليه الصلاة والسلام بذبح ابنه، بل ولم يأمره جبريل بقوله: إن الله يبلغك أن تذبح ابنك، ولكن جاء أمره: {إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ} [الصافات: ١٠٢]، مجرد رؤيا، فلم يقل: لعلها من الشيطان أو كذا، أو أنام الليلة فإن تكررت فعلت، ولكن اليقين جعله يمتثل، وجعل ابنه كذلك {يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ} [الصافات: ١٠٢]، فقد حصل اليقين عند الأب، وكذلك حصل اليقين عند الابن، وهذه هي الدرجة التي يريدنا الله تبارك وتعالى ويحب أن يكون أنبيأؤه وأوليأؤه عليها (٥٦).

ولقد علم رسول الله ﷺ صحابته الكرام كيفية التوكل على الله ﷻ في سائر الأمور، ففي يوم الهجرة يستأجر مشركاً ليدله على الطريق، وهو سيد المتوكلين، لماذا لم يقل النبي ﷺ: معي ربي سيدلني على الطريق؟! لا.

بل يأخذ النبي ﷺ بالأسباب، فيستأجر مشركاً ليدله على الطريق، ويحمل الرحلة والزاد.

وفي يوم أحد يحارب النبي ﷺ بين درعين، وكان يدخر لقومه ولأهله القوات في بيته وهو سيد المتوكلين، هذا هو التوكل الحقيقي أن نأخذ بالأسباب، أن نبذر الحب في الأرض، وأن نتعاهد الزرع بالري والحرث والتنقية، وأن نتعلق قلوبنا بعد ذلك بالله لا بالأسباب، لأن الأسباب وحدها لا تضر ولا تنفع، ولا ترزق ولا تمنع إلا بأمر مسبب الأسباب جل جلاله، وهذا هو التوكل الذي أمر الله به نبيه فقال: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ} [الفرقان: ٥٨] {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ} [آل عمران: ١٥٩] {إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} [آل عمران: ١٥٩] (٦٢).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنَ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ قَالَ: يُقَالُ حَيْثُ نَدَى: هُدَيْتَ وَكُفَيْتَ وَوَقَيْتَ فَتَتَحَى لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ

هُدِي وَكُنِي وَوَقِي؟!» (١).

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه يَقُولُ: قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَعْقِلْهَا - أَيِ أَرْبِطِ النَّاقَةَ - وَأَتَوَكَّلْ أَوْ أَطْلِقْهَا - أَيِ أَتْرِكْهَا حُرَّةً - وَأَتَوَكَّلْ؟ قَالَ: «أَعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ» (٢).

ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على تعليم الغلمان من أولاد الصحابة كيف يتوكلون على الله حق التوكل، فقد كان يركب وراءه ذات مرة ابن عباس، فقال له: «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعَلَّمُكَ كَلِمَاتٍ أَحْفَظُ اللَّهُ؛ يَحْفَظُكَ، أَحْفَظُ اللَّهُ؛ حَاجِدُهُ مُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ، لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ، وَجُمِعَتِ الصُّحُفُ» (٣) فما أعظمه من حديث، لذا ينبغي أن يعلم كل واحد أهل بيته الرضا بقضاء الله، والشجاعة والإقدام وحسن التوكل على الله تعالى، مع أهمية أن يشرح لهم أن التوكل يعني الأخذ بالأسباب بالجوارح مع التوكل على الله بالقلب، أي التيقن من أن تحقيق الغاية لن يتم إلا بأمر الله؛ فإذا لم يكن هناك أسباب يمكن اتخاذها فالأمر لله، وهنا ينبغي التضرع والدعاء له تعالى لتحقيق تلك الغاية، مع الثقة في حكمته وأن كل ما يأتي به الله خير.

يقول الداعية الإسلامي الأستاذ " عمرو خالد " : كان لي صديق يعمل في إحدى الفنادق الكبيرة بالقاهرة، وكان من ضمن مهام مهنته أن يعد لحفلات يرتكب فيها محرمات، وبينما هو يعد قائمة بالمطلوب لإحدى هذه الحفلات، نظر أمامه فإذا بالشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله تعالى يتناول الطعام أمامه في المطعم، فتيقظ ضميره وشعر أنه يأتي مُحَرَّمًا، فما كان منه إلا أن ترك ما بيده وذهب إليه يسأله، هل ما أفعله بوظيفتي حلال أم حرام؟ فقال له: " إنه حرام "، فقال له: " فماذا أفعل؟ "

(١) (صحيح) أخرجه (د ن حب) وصححه الألباني في ص. ج ٤٩٩.

(٢) (حسن) أخرجه (ت) ٢٥١٧ وحسنه الألباني.

(٣) (صحيح)، أخرجه (حم ت ك) وصححه الألباني في ص. ج ٧٩٥٧.

فقال له: " اتركها "، فرد الشاب " إن لي زوجة وأولاداً، فمن أين سنجد قوتنا؟ "، فرد عليه الشيخ الجليل: " يا بني إنه {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} [الطلاق: ٢ - ٣]، قال له: " إذن أظل بوظيفتي حتى أجد غيرها ثم أتركها "، فرد الشيخ الشعراوي رحمه الله تعالى بحزم: " يا بني إنه يقول: من يتق الله (أولاً) يجعل له مخرجاً (بعد ذلك)... فكيف تريده أن يجعل لك مخرجاً وأنت لم تتقاه؟ ".

فظل الشاب يفكر حتى هداه الله إلى كتابة الاستقالة والتوكل عليه سبحانه، ولكنه قبل أن يتم كتابتها إذا بمدير سلسلة الفنادق التي ينتمي إليها هذا الفندق يتصل به ويقول: " أريد أن أخبرك بشيء، فرد الشاب وأنا أيضاً أريد أن أخبرك بشيء - يعني الاستقالة - ولكن المدير قال له: " سأقول لك أنا أولاً: لدينا وظيفة شاغرة لمدير فرعنا بالمدينة المنورة وقد اخترتك لها، فما رأيك؟! ".

وهذه قصة واقعية أخرى لمسلم توكل على الله وافتخر بانتمائه للإسلام واعتز بتفضيل مراد الله على مراده: يقول الدكتور " عبد الله الخاطر " الذي كان يعيش في إنجلترا لدراسة الدكتوراه: " التقيت بشاب إنجليزي يعيش في جنوب لندن، وقد أسلم حديثاً، وبعد إسلامه بثلاثة أسابيع عثر على وظيفة، فحاول غيره من الشباب المسلمين أن يحذروه من أن يقول: إنه قد أسلم حين يذهب للمقابلة الشخصية، حتى لا يكون ذلك سبباً في عدم قبوله، فيتأثر نفسياً فيرتد عن دينه، إلا أن هذا الشاب توكل على ربه ولم يخشهم، فذكر لأصحاب العمل أنه قد أسلم وكان اسمه " رود "، فأصبح " عمر "، وقال لهم أيضاً بفخر: " لقد غيرت ديني واسمي وأريد وظيفة تتيح لي وقتاً للصلاة، فما كان منهم إلا أن قبلوه في تلك الوظيفة!!! وكان الأمر أعجب عندما قالوا له: " إننا نريد في هذه الوظيفة رجلاً عنده القدرة على اتخاذ القرارات وأنت عندك قدرة عظيمة جداً في اتخاذها، فقد غيرت اسمك ودينك وهذا إنجاز كبير!!! (٢٠).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

* * *

الدرس السابع والأربعون:

خلق العدل

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع أهل سمرقند لما وصل خبر تولية عمر بن عبد العزيز الخلافة إلى سكان ما وراء النهر، اجتمع أهل سمرقند وقالوا لسليمان بن أبي السري: إن قتيبة غدر بنا، وظلمنا وأخذ بلادنا، وقد أظهر الله العدل والإنصاف، فأذن لنا فليهد منا وفد إلى أمير المؤمنين، يشكو ظلامتنا، فإن كان لنا حق أعطينا، فإن بنا إلى ذلك حاجة. فأذن لهم سليمان، فوجهوا منهم قوماً قدموا على عمر، فكتب لهم عمر إلى سليمان ابن السري: إن أهل سمرقند قد شكوا إليّ ظمناً أصابهم، وتحاملاً من قتيبة عليهم أخرجهم من أرضهم، فإذا أتاك كتابي فأجلس لهم القاضي فلينظر في أمرهم، فإن قضى لهم فأخرجهم - المسلمون الغزاة - إلى معسكرهم كما كانوا وكنتم قبل أن ظهر عليهم قتيبة، فأجلس سليمان جُميعة بن حاضر القاضي فقضى أن يخرج عرب سمرقند إلى معسكرهم وينابذهم على سواء فيكون صلحاً جديداً أو ظفراً عنوة، فقال أهل الصغد - أي قوم يسكنون بلاد ما وراء النهر - بل نرضى بما كان ولا نجد حرباً، وتراضوا بذلك، فقال أهل الرأي: قد خالطنا هؤلاء القوم وأقمنا معهم، وأمنونا وأمناهم، فإن حكم لنا عدنا إلى الحرب ولا ندرى لمن يكون الظفر، وإن لم يكن لنا اجتلبنا عداوة في المنازعة، فتركوا الأمر على ما كان ورضوا ولم ينازعوا (١٢).

معاشر الإخوة، هل هناك دولة في القرن الحادي والعشرين تحني رأسها هكذا للعدل كي يأخذ مجراه وللحق كي يعود إلى أصحابه؟ وأي حاكم في تاريخ الشعوب التي لم تعرف الله، استجاب، هكذا، لنداءات المظلومين الذين سلبت حقوقهم، كهذه الاستجابة السريعة

الحاسمة من عمر ابن عبد العزيز؟ فهذا مثل رفيع من عدل عمر (٤١).

ويصدق ذلك قول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ} [النساء: ١٣٥].

فيوجب الله تعالى في هذا النداء الإلهي العدل في القضاء، والشهادة، والقول، والعمل، والاعتقاد، فعلى من قضى بين اثنين أن يعدل في حكمه، وأن من شهد أن يعدل في شهادته، وأن من قال مخبراً أو أمراً، أن يعدل في قوله وفي أمره، إذ على العدل قامت السماوات والأرض، وقد طبق رسول الله ﷺ مضمون هذه الآية، حتى يستتب العدل، كما كان الحال مع المرأة المخزومية القرشية التي سرقته، وقرر رسول الله ﷺ تنفيذ الحد عليها، فعن عائشة رضي عنها: «أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالَ: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ رضي عنه، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَإِيمَ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ ابْنَةَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ، لَقَطَعْتُ يَدَيَّهَا» (١).

الإخوة أفضلاء، إن العدل صفة خلقية كريمة تعني التزام الحق والإنصاف في كل أمر من أمور الحياة، والبعد عن الظلم والبيغي والعدوان قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ}، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ} وقد ورد في الحديث الشريف قوله ﷺ: «تَعْدُلُ بَيْنَ اثْنَيْنِ صَدَقَةٌ»، والإسلام يربأ بالمسلم عن الوقوع في أي لون من ألوان الظلم، فالظالم مطرود من رحمة الله، ولقد أوعد الله سبحانه وتعالى الظالمين بأشد العقوبات. قال تعالى: {أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ} وقال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخَّرُهُمْ لِيَوْمَ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} كما تضمنت السنة النبوية الشريفة مجموعة من الأحاديث التي تقر العدل وتُحَرِّمُ الظلم، منها:

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٣٢٨٨، و(م) ١٦٨٨.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلَى مَنَابِرٍ مِنْ نُورٍ عَنِ يَمِينِ الرَّحْمَنِ، وَكَلَّمْنَا يَدَيْهِ يَمِينًا، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلَّوْا»^(١).

قال النووي: قول رسول الله ﷺ: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولّوا فمعناه أنّ هذا الفضل إنما هو لمن عدل فيما تقلده من خلافة أو إمارة أو قضاء أو حسبة أو نظر على يتيم.. ونحو ذلك والله أعلم.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا»^(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي ظِلِّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَوْمٌ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ إِمَامٌ عَادِلٌ.»^(٣)

قال ابن حجر: "وأحسن ما فسر به العادل أنه الذي يتبع أمر الله بوضع كل شيء في موضعه من غير إفراط ولا تفریط."

وللظلم عواقب وخيمة، وما تزول الدول ولا يضطرب الحال إلا بسبب الظلم والتعسف والجور: {وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا} [الكهف: ٥٩]، {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ} (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ [هود: ١٠٢ - ١٠٣].

عباد الله: العدل والإنصاف حتى مع الكفار: قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [المائدة: ٨].

أي: لا يحملنكم بغض الكفار {عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ} [المائدة: ٨] هذا إذا كان مع الكفار، فكيف إذا كان مع المسلمين من أهل البدع؟! بل كيف إذا كان مع المسلمين من أهل السنة!؟

(١) (صحيح) أخرجه (م) ٤٨٢٥.

(٢) (صحيح) أخرجه (م) ٢٥٧٧.

(٣) (صحيح) أخرجه (خ) ٦٤٢١.

اسمع إلى عمرو بن العاص رضي الله عنه لما سمع رجلاً يقول: تقوم الساعة والروم أكثر الناس، فقال: ماذا تقول؟ قال: أقول ما سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أما إنه إن كان حقاً ما تقول، فإن فيهم لخصالاً أربعاً، اسمع كيف يثني على الكفار وإن كانوا كفاراً؛ لأن الأمر فيه حكمة وعدل وإنصاف، قال: فإن فيهم لخصالاً أربعاً: إنهم أحلم الناس عند الفتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك (٦٥).

وللعدل ثمار كثيرة نذكر منها:

- ١ - إنه سبب للبركة في الأرزاق، ولقد وُجد في خزائن بعض بني أمية صرة حنطة أمثال نوى التمر مكتوبٌ عليها: هذا كان ينبت أيام العدل.
 - ٢ - إنه موصل إلى محبة الله سبحانه وتعالى، قال الله تعالى: {وَأَقْسَطُوا لِنَّ اللهُ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} [الحجرات: ٩]، فهو سبحانه عدل ويحب أهل العدل.
 - ٣ - إنه قرين التوحيد، وذلك لأن التوحيد أعظم العدل، كما أن الشرك أعظم الظلم، قال تعالى: {شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [آل عمران: ١٨].
 - ٤ - أنه سبب لقيام الدول وسر استقرارها، قال ابن تيمية: " قيل: إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام " (٥٢).
- (سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

الدرس الثامن والأربعون:

خلق الوفاء بالعهود

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، موعدنا مع صورة مشرقة في حرص النبي ﷺ على حفظ العهود، وذلك حينما كان يفاوض سهيل بن عمرو في الحديبية، حيث جاءه ابن سهيل يرسف في الأغلال، وقد فر من مشركي مكة، وكان أبوه يتفاوض مع الرسول ﷺ، وكان هذا الابن ممن دخلوا الإسلام جاء مستصرخاً بالمسلمين، وقد انفلت من أيدي المشركين، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه وأخذ بتلابيبه، وقال: يا محمد لقد لجت القضية بيني وبينك، أي فرغنا من المناقشة قبل أن يأتيك هذا، فقال رسول الله ﷺ: صدقت، فقال أبو جندل: يا معشر المسلمين أأرد إلى المشركين يفتنوني في ديني؟! فلم يغن عنه ذلك شيئاً، ورده رسول الله ﷺ وقال لأبي جندل: إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناكم على ذلك وأعطونا عهداً، وإنا لا نغدر بهم، غير أن النبي ﷺ إزاء هذه المأساة التي حالت بنود معاهدة الصلح بينه وبين أن يجد مخرجاً منها لأبي جندل المسلم، طمأن أبا جندل وبشره بقرب الفرج له ولمن على شاكلته من المسلمين، وقال له وهو يواسيه: يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، لقد كان درس أبي جندل امتحاناً قاسياً ورهيباً لهذا الوفاء بالعهد أثبت فيه الرسول ﷺ والمسلمون نجاحاً عظيماً في كبت عواطفهم وحبس مشاعرهم، وقد صبروا لمنظر أخيهم أبي جندل وتأثروا من ذلك المشهد عندما كان أبوه يجتذبه من تلابيبه، والدماء تنزف منه، مما زاد في إيلاهم حتى أن الكثيرين منهم أخذوا يكون بمرارة إشفاقاً منهم على أخيهم في العقيدة، وهم ينظرون إلى أبيه المشرك وهو يسحب بفضافة الوثني الجلف ليعود به مرة أخرى إلى سجنه الرهيب في

مكة (٣٢).

وصورة أخرى مشرفة على الوفاء بالعهد فيما حدث بين حذيفة ابن اليمان ؓ وأبيه وكفار قريش، قال حذيفة: ما منعنا أن نشهد بدرًا إلا أني وأبي أقبلنا نريد رسول الله ﷺ، فأخذنا كفار قريش فقالوا: إنكم تريدون محمدًا، فقلنا: ما نريده إنما نريد المدينة، فأخذوا علينا عهد الله وميثاقه لتصيرن إلى المدينة ولا تقاتلوا مع محمد ﷺ، لما جاوزناهم أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا له ما قالوا وما قلنا لهم فيما ترى؟ قال: نستعين الله عليهم ونفي بعهدهم، فانطلقنا إلى المدينة، فذاك الذي منعنا أن نشهد بدرًا مكة (٣٢).

يقول فضيلة الشيخ محمد حسان: إن صدق الوعد خصلة كريمة من خصال الإيمان، وخلق عظيم من أخلاق الإسلام، عز وجوده وندر في هذه الأيام، فكم من وعود معسولة! وكم من عهود مسموعة ومرئية ومنقولة! ولكن أين الوفاء بالعهد؟! وأين صدق الوعد والوعد؟! فإن كثيراً من الناس في هذه الأيام يتكلم؟ وكم من المسؤولين من يعد؟ وكم من المسؤولين من يتعهد الله وللناس؟ ولكن أين صدق الوعد؟! وأين الوفاء بالعهود؟! لذا أثنى الله جل وعلا على إسماعيل بصدق الوعد؛ لعظم فضل هذه الخصلة وهذا الخلق فقال: {إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا} [مريم: ٥٤].

قال أئمة التفسير: إن الله جل وعلا أثنى بهذا على إسماعيل عليه الصلاة والسلام؛ لأنه ما من عهد عاهد به ربه إلا وصدق في عهده ووعد له لربه جل وعلا، فهو الذي وعد الخليل عليه الصلاة والسلام أن يجده صابراً إذا ما جاء لينفذ فيه أمر الله بالذبح، كما قال الله عز وجل عنه: {قَالَ يَا أَبِيتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} [الصافات: ١٠٢]، والدليل على أنه وفى بوعد قول ربه جل وعلا: {فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ} [الصافات: ١٠٣]، عاهد ربه فوفى بعهده ووعد الله عز وجل، لذا أثنى الله عليه بقوله: {إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ} [مريم: ٥٤].

معاشر الإخوة، الأمانة ما يؤتمن عليه من قول أو فعل أو عين، فمن حدثك بسرٍ فقد ائتمنك، ومن فعل عندك ما لا يحبُّ الاطلاع عليه فقد

انتمنك، ومن سَلَمَكَ شيئاً من ماله لِحِفْظِهِ فقد انتمنك، والعَهْدُ ما يلتزمُ به الإنسانُ لغيره كالنذرِ لله والعهودِ الجاريةِ بينَ الناسِ.

وسواء كان عهداً مع الله ﷻ أو مع رسوله ﷺ أو مع أي أحد فالوفاء بكل ذلك من لوازم الصدق، كما أن إخلاف أي منها من لوازم الكذب والنفاق، ويجب الوفاء بالشروط أياً كانت هذه الشروط، ما دامت لا تحل حراماً ولا تحرم حلالاً، ولذلك يقول رسول الله ﷺ: «السُّلَمِيُّونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ، إِلَّا شَرْطًا أَحَلَّ حَرَامًا أَوْ حَرَّمَ حَلَالًا»^(١)، أما الشروط التي لا تحل حراماً ولا تحرم حلالاً؛ فإنه يجب الوفاء بها أياً كانت هذه الشروط، سواء كانت بين الزوجين، أو بين الأجيرين، أو بين أي اثنين من الناس؛ لأن الله تعالى قال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ} [المائدة: ١]، فالوفاء بعهد الله ﷻ يقتضي توحيدِهِ وإفراده بالعبادة، كما يقتضي التحاكم إلى شرعه وحده والكفر بالطاغوت، ولقد أخذ الله تعالى العهد على بني آدم ألا يعبدوا الشيطان، قال تعالى: {أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠)} {يس: ٦٠}.

إن الوفاء بعهد رسول الله ﷺ يقتضي إحياء سنته والذب عنها وتقديم قوله على قول كل أحد، وهذا مقتضى شهادة أن محمداً رسول الله، فمن أخل بشيء من ذلك المقتضى فهو كاذب في هذه الشهادة، وأما الوفاء بعهد الناس فقد جعل الشرع خلف الوعد والغدر فيه من أشد أنواع الكذب بل جعله من أركان النفاق وآيات المنافقين كما قال رسول الله ﷺ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النَّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُوْتِمِنَ خَانَ وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»^(٢).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَجْتَمِعُ الْإِيْمَانُ وَالْكَفْرُ فِي قَلْبِ امْرِئٍ، وَلَا يَجْتَمِعُ الصِّدْقُ وَالْكَذِبُ جَمِيعًا، وَلَا يَجْتَمِعُ الْحَيَانَةُ وَالْأَمَانَةُ

(١) (صحيح) أخرجه (ت) ١٣٥٢ وصححه الألباني.

(٢) (صحيح) أخرجه (خ) ٣٤ و(م) ٥٨.

جميعاً»^(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَمْسٌ بِخَمْسٍ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا خَمْسٌ بِخَمْسٍ؟ قَالَ: مَا نَقَضَ قَوْمُ الْعَهْدِ إِلَّا سُلْطَ عَلَيْهِمْ عُدُوهُمْ، وَمَا حَكَمُوا بغير مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الْفَقْرُ، وَلَا ظَهَرَتْ فِيهِمُ الْفَاحِشَةُ إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الْمَوْتُ، وَلَا طَفَّفُوا الْمِكْيَالَ إِلَّا مُنِعُوا النَّبَاتَ وَأَخَذُوا بِالسِّنِينَ، وَلَا مَنَعُوا الزَّكَاةَ إِلَّا حُسِسَ عَنْهُمْ الْقَطْرُ»^(٢).

والوفاء بالعهود الداخلية والخارجية من الخصائص اللازمة والضرورية للدولة الإسلامية، لإقرار الأمن وتحقيق السلام والاستقرار، قال تعالى: {وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} [النحل: ٩١].

وهذا فرض ومنهج حياة لا تجوز مخالفته، قال تعالى: {وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا} [الإسراء: ٣٤]. وذلك لنشر السلام في كل أنحاء أديار الإسلام، لقوله ﷺ: «أَفْشُوا السَّلَامَ بَيْنَكُمْ»^(٣)، ولا فرق في ذلك بين مسلم وذمي من رعايا الدولة الإسلامية، وفي العلاقات الخارجية فالدولة الإسلامية تدعو إلى السلام، ما لم تنتهك حرمة الله أو يعتدى على أرض المسلمين، قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (٨) {إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ} [الممتحنة: ٨ - ٩] (٢٠).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

(١) (حسن) أخرجه (حم) ٨٥٧٧ وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٢) (حسن) أخرجه (طب) وحسنه الألباني في ص. ج برقم ٣٢٤٠.

(٣) (صحيح) أخرجه (م) ٥٤.

الدرس التاسع والأربعون:

حسن الخلق

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع حلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع عيينة ابن حصن، فعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: قَدِمَ عَيْنَةُ بْنُ حِصْنِ بْنِ حُدَيْفَةَ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أَخِيهِ الْحُرِّ بْنِ قَيْسٍ وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُذْنِبُهُمْ عُمَرُ، وَكَانَ الْقُرَاءُ - أي العلماء والعباد - أَصْحَابَ مَجَالِسِ عُمَرَ وَمُشَاوَرَتِهِ كَهَوْلًا كَانُوا أَوْ شُبَّانًا، فَقَالَ عَيْنَةُ لِابْنِ أَخِيهِ: يَا ابْنَ أَخِي هَلْ لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هَذَا الْأَمِيرِ فَاسْتَأْذِنْ لِي عَلَيْهِ؟ قَالَ: سَأَسْتَأْذِنُ لَكَ عَلَيْهِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: فَاسْتَأْذَنَ الْحُرُّ لِعَيْنَتِهِ فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ قَالَ: هِيَ يَا بْنَ الْخَطَّابِ فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الْجَزَلَ وَلَا تَحْكُمُ بَيْنَنَا بِالْعَدْلِ، فَعَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقَعَ بِهِ فَقَالَ لَهُ الْحُرُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ لِنَبِيِّهِ ﷺ {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩]، وَإِنَّ هَذَا مِنَ الْجَاهِلِينَ وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلَاهَا عَلَيْهِ وَكَانَ وَقَافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّهِ (١).

إخوتي في الله، عليكم بحسن الخلق فإن كثيراً من العصاة والفجار والفساق كانوا يرون من حسن خلق الصحابة والتابعين ما يجعل قلوبهم ترق وتلين ويتركون ما كانوا عليه من الفسق والفجور، وهذا كثير جداً في عهد الصحابة والتابعين، ومنها قصة صلة بن أشيم رضي الله تعالى عنه - وهو من التابعين -، لما كان يذهب إلى الصحراء في الليل ويمر بشباب يلهون ويعبثون - مثل ما نرى الشباب هذه الأيام في الكازينوهات والملاعب - في الليل، فقال: إن قوماً - أي يضرب لهم مثلاً وهو يمشي -

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٤٣٦٦.

كانوا مسافرين قضوا الليل في اللعب وغفلوا في النهار فأنى يدركون الطريق أو فأنى يصلون، يضرب لهم المثل أول الليل ويمشي، وفي اليوم الثاني قال أحدهم: والله إنه ليريدنا ويعيننا، ويقول لنا: نحن أمامنا طريق، وأمامنا سفر وهو الانتقال إلى الدار الآخرة، ومع ذلك نضيع هذه الأوقات، فأفاقوا من غفلتهم، وكانوا قرابة العشرين شاباً فأصبحوا من خيار شباب الإسلام لقد استيقظوا بحسن الخلق في الدعوة، وبحسن التعامل وبالرفق (٦٧).

كما أن حسن الخلق يقرب العبد إلى الله جل وعلا ويرفع درجته في الجنة، ولقد كان النبي ﷺ يدعو إلى مكارم الأخلاق.

قال تعالى: {لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (١٦٤)} [آل عمران: ١٦٤].

فالعبادات من مقاصدها حسن الخلق فمثلا الصلاة ثمرتها تجنب الفحشاء والمنكر، والصدقات ثمرتها تزكية النفس من رذائل الأخلاق، والصيام ثمرته التقوى وهو الإتيان بالأوامر وتجنب النواهي وكل الأوامر والنواهي مفضية لحسن الخلق والحج ثمرته حسن الخلق وذلك بتجنب الرفث والفسوق والعصيان.

فلا ينبغي أن يكون الدين في المسجد فقط يصلى الرجل مع المصلين وخارج المسجد يتكبر ويلعن ويؤذى ويسخر ويضرب ولا يعطى الناس حقوقهم ويخلف المواعيد ويكذب فهذا كله من مساوئ الأخلاق.

معاشر الإخوة، هناك فضائل كثيرة لحسن الخلق، من أعظمها أنه سبب في مرافقة النبيين وجوار الصالحين مع الذين أنعم عليهم رب العالمين، نسأل الله العظيم أن يبلغنا الجنة بمنه ورحمته وهو أرحم الراحمين، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبَدِيءَ»^(١).

وَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ الْخُلُقِ دَرَجَةَ

(١) (صحيح) أخرجه (ت) وصححه الألباني في ص. ج ٥٦٣٢.

الصَّائِمِ الْقَائِمِ» (١).

وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَابَسَكُمْ أَخْلَاقًا» (٢). وروى الترمذي عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُبَارَكِ، أَنَّهُ وَصَفَ حُسْنَ الْخُلُقِ فَقَالَ: هُوَ بَسْطُ الْوَجْهِ وَبَذْلُ الْمَعْرُوفِ وَكَفُّ الْأَذَى.

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ لِي النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلِقٍ» (٣).

فطلاقة الوجه تدخل السرور على من قابلك، وعلى من اتجه لك، وتجلب المودة والمحبة، وتوجب انشراح القلب، بل توجب انشراح الصدر منك وممن يقابلك، وجرب تجد، لكن إذا كنت عبوساً فإن الناس ينفرون منك، ولا ينشرحون بالجلوس إليك، ولا بالتحدث معك، كما أن مساعدة الناس وكف الأذى عنهم من حسن الخلق. هذه الأصول الثلاثة التي يدور عليها حسن الخلق في معاملة الخلق.

والأخلاق منحة من الله جل جلاله، ألا وإن أحق الناس بأخلاقك وأحق الناس بعطفك وحنانك وبرك وإحسانك ومن تظهر له الخلق الحسن والذاك ثم أهل بيتك: {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا} [الإسراء: ٢٣].

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِيهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي» (٤).

إخوتي في الله، هناك وسائل مفيدة لتحسين الخلق نذكر منها:

١ - المجاهدة، فالمجاهدة تنفع كثيراً في ذلك لأن الخلق الحسن نوع من الهداية يحصل عليه المرء بالمجاهدة، قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩].

(١) (صحيح لغيره) أخرجه (حم) ٢٥٥٧٨ وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٢) (صحيح) أخرجه (ت) ٢٠١٨ وصححه الألباني.

(٣) (صحيح) أخرجه (م) ٢٦٢٦.

(٤) (صحيح) أخرجه (ت) وصححه الألباني في ص. ج ٣٣١٤

٢ - مراقبة النفس ومحاسبتها، وذلك بنقد النفس إذا ارتكبت أخلاقاً نميمية، وحملها على ألا تعود إلى تلك الأخلاق مرة أخرى، مع أخذها بمبدأ الثواب إذا أحسنت، وأخذها بمبدأ العقاب إذا توانت وقصرت.

٣ - التفكير في الآثار المترتبة على حسن الخلق، فإن معرفة ثمرات الأشياء، واستحضار حسن عواقبها من أكبر الدواعي إلى فعلها.

٤ - النظر في عواقب سوء الخلق، وذلك بتأمل ما يجلبه سوء الخلق من الأسف الدائم، والهم الملازم، والحسرة والندامة، والبغضة في قلوب الخلق.

٥ - الدعاء، فالدعاء باب عظيم ولهذا كان النبي يقول في دعاء الاستفتاح: اللَّهُمَّ اهْدِنِي لِحَسَنِ الْإِخْلَاقِ، لا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، واصرف عني سيئها لا يصرف سيئها إِلَّا أَنْتَ.

٦ - الصبر من الأسس الأخلاقية التي يقوم عليها الخلق الحسن؛ فالصبر يحمل على الاحتمال، وكظم الغيظ، وكف الأذى، والحلم، والأناة، والرفق، وترك الطيش والعجلة.

٧ - تكلفُ البشْر والطلاقة، وتُجَنَّبُ العبوس والتقطيب.

٨ - التغاضي والتغافل والحلم، قال ابن الأثير عن صلاح الدين الأيوبي: كان حليماً حسن الأخلاق، متواضعاً، صبوراً على ما يكره، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه، يسمع من أحدهم ما يكره، ولا يُعلمه ولا يتغير عليه.

٩ - الإعراض عن الجاهلين والعمو والصفح، قال تعالى: {خُذْ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ} [الأعراف: ١٩٩].

١٠ - تجنّب الغضب؛ لأن الغضب جمة تتقد في القلب، واحتسب الأجر عند الله فهذا الأمر من أعظم ما يعين على اكتساب الأخلاق الفاضلة (٤).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

الدرس الخمسون:

خلق الحياء

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة رائعة للسلف الصالح، حيث جاء رجل إلى إبراهيم بن أدهم، فقال: يا إمام أريد أن أتوب وأن أترك الذنوب، وإذا بي أعود إليها، دلني على أشياء تعصمني فلا أعصي الله.

فقال له إبراهيم بن أدهم: إن أردت أن تعصي الله فلا تعصه على أرضه! فقال الرجل: فأين أعصيه؟ قال إبراهيم: خارج أرضه!! فقال الرجل: كيف يا إمام والأرض كلها لله؟ فقال إبراهيم: أما تستحي أن تكون الأرض كلها لله وتعصيه على أرضه؟

ثم قال إبراهيم: وإن أردت أن تعصيه فلا تأكل من رزقه! قال الرجل: فكيف أحيأ؟ فقال إبراهيم: أما تستحي أن تأكل من رزقه ثم تعصيه؟

ثم قال إبراهيم: فإن أبيت إلا أن تعصي الله فاعصه في مكان لا يراك فيه!

فقال الرجل: وكيف ذلك وهو معنا أينما كنا؟ فقال إبراهيم: أما تستحي أن تعصيه وهو معك قريب منك؟

ثم قال إبراهيم: فإن أبيت إلا أن تعصي الله، فإن جاءك ملك الموت ليأخذ روحك فقل له: أنظرني حتى أتوب!! فقال الرجل: ومن يملك ذلك!؟

فقال إبراهيم: أما تستحي أن يأتي ملك الموت ويأخذ روحك وأنت على المعصية؟ ثم قال إبراهيم: فإن أبيت إلا أن تعصي الله، فإذا جاءتك زبانية جهنم يأخذونك إلى النار فقل لهم: لن أذهب معكم. فقال الرجل: وكيف ذلك يا إمام!؟

فقال إبراهيم: أما تستحي من الله بعد كل هذا!!!؟ (٤٨).

أخي الحبيب، الحياء خلق نبيل يحول بين من يتمتع به وبين فعل المحرمات وإتيان المنكرات، ويصونه من الوقوع في الأوزار والآثام، وهو كذلك الامتناع عن فعل كل ما يستقبحه العقل ولا يقبله الذوق السليم، والكف عن كل ما لا يرضى به الخالق والمخلوق، فإذا تحلى المسلم بهذا الخلق، صحت سريرته وعلانيته، وعامل الخلق بما يرضاه مولاه، وكذلك فإن هذا المسلم الحي لا يقبل إلا الحلال من كل شيء وفي المطعم، والمشرب، والملبس وغير ذلك كما يعد الحياء دليلاً صادقاً على مقدار ما يتمتع به المرء من أدب وإيمان، عَنْ سَالِمٍ عَنْ أَبِيهِ: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ رَجُلًا يَعْظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ فَقَالَ: «الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ» (١).

ولقد حثت الشريعة الإسلامية المسلمين على التحلي بفضيلة الحياء وبين النبي ﷺ أن هذا الخلق الشريف هو أبرز ما يميز به الإسلام فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ» (٢).

وإذا استحکم خلق الحياء في نفس المسلم، صده عن كل قبیح وقاده إلى كل أمر حسن طيب، والحياء لا يأتي إلا بخير، أما إذا ضعف هذا الخلق فلن يحل محله إلا السفه والوقاحة والفحش، ويجد الإنسان نفسه أمام أبواب مفتوحة من السوء والمنكر فينزلق إليها.

وإذا كان الحياء من الناس حسناً، فإن الأحسن منه كثيراً أن يكون الحياء من الله تعالى لأنه يمنع الإنسان من المعاصي دائماً، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اسْتَحْيُوا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ، قَالَ: قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، قَالَ: لَيْسَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ الْإِسْتِحْيَاءَ مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكَرَ الْمَوْتَ وَالْبَلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنْ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ» (٣).

(١) (صحيح) أخرجه (م) ٣٦.

(٢) (صحيح) أخرجه (هـ) وحسنه الألباني في ص.ج ٢١٤٩.

(٣) (حسن) أخرجه (ت) ٣٧٩٠ وحسنه الألباني.

(٤٨).

يقول فضيلة الدكتور عبد العظيم بدوي : هكذا بين رسول الله ﷺ أن حقيقة الحياء من الله تكون بمجموع هذه الأمور التي ذكرت في الحديث، وأن من ترك منها شيئا نقص حياؤه على قدر ما ترك منها.

وأول هذه الأمور: حفظ الرأس مجملا بالنتزه عن الشرك، فلا يضع رأسه لغير الله ساجدا، ولا يرفعه على عباد الله تكبرا، وتفصيلا: فحفظ الرأس معناه: أن يحفظ رأسه وما وعاه من الحواس كالشم واللسان، والعين والأذن. فحفظه الفم يكون باجتناب أكل الحرام وما فيه شبهة، وأكل الحرام يمنع قبول الدعاء، وأما اللسان فإمساكه عن الحرام والشر واجب، فبتجنبه الكذب، والغيبة، والنميمة، وشهادة الزور، وبه يكون القول على الله بغير علم، وكل ذلك من الموبقات، وأما العين فبحفظها عن النظر لما لا يجوز له النظر إليه، أما الأذن: فحفظها يكون بترك الاستماع إلى الخنا والفجور، وبترك الاستماع إلى القينات والمعازف، وبترك الاستماع إلى كل ما حرم الله الاستماع إليه، فإن المسلم مخاطب بتغيير المنكر إذا رآه أو سمعه، فإذا استمع الإنسان للمنكر ألفه قلبه، حتى لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا.

ويدخل في حفظ الرأس حفظه عن نظر من لا يجوز له النظر إليه، وأما حفظ الفم، فلا يدخل فيه حرام وما فيه شبهة.

وأما ما حواه البطن فالمراد به الفرج، وحفظ الفرج قد أمر الله به فقال: {قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ} (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا} [النور: ٣٠ - ٣١].

ومما يحزن القلب تساهل المؤمنات في الذهاب إلى الأطباء الرجال لأتفه الأسباب، وتمكينهم من الكشف على العورة المغلظة والنظر إليها ولمسها من غير ضرورة. فاتقين الله معشر المسلمات، واحفظن فروجكن، واعلمن أن الحياء والإيمان قرناء، إذا رفع أحدهما رفع الآخر!.

ومن حقيقة الاستحياء من الرب: ذكر الموت، لأن من ذكر أن مآله للموت والفناء، هان عليه ما فاته من اللذات العاجلة، وأهمه ما يلزم من طلب الآجلة، ومن أراد الآخرة أي الفوز بنعيمها ترك زينة الدنيا، ومدح الحافظين فروجهم فقال: {وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} [الأحزاب: ٣٥].

إخوتي في الله، هناك فرق كبير بين الخجل والحياء، فالخجل يعرفه علماء النفس بأنه: ارتباك نتيجة موقف، كسؤال المعلم للطالب.. فتجد الطالب يخجل ولا يستطيع عرض رأيه بوضوح، فالخجل ناتج عن جبن، عن خوف.. فالشخصية الخجولة شخصية ضعيفة.. يرى حقه مهضوما ولا يطالب به، ولكن الحياء عكس ذلك تماما.. فإن الحياء ناتج عن شخصية قوية، شخصية تستشعر قيمتها فهي كريمة.. تستعلي أن تفعل القبائح (٤٨).

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَذْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ» ^(١).

أي أن الإيمان يتكون من بضع وستين شعبة من تجمعت فيه صار مؤمنا، ونلاحظ أن النبي ﷺ لم يذكر هذه الشعب ولكنه ذكر الحياء فقط.

سبحان الله!!! انها لدلالة صريحة على أن الحياء سيأخذ بيدك للبضع والستين شعبة، فإن كنت حيبا انضبطت معك بقية الشعب (٤٨).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قُرْنَاءُ جَمِيعًا فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ» ^(٢).

سبحان الله!!! إنها لدلالة صريحة على أن الحياء جزء أساسي من مكونات الإيمان، كما أنه قرين للإيمان إذا رفع أحدهما رفع

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٩، و(م) ٥٨ واللفظ لمسلم.

(٢) (صحيح) أخرجه (ك) وصححه الألباني في صت ٢٦٣٦.

الآخر.

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب

إليك)

www.KitaboSunnat.com

الدرس الحادي والخمسون:

الزهد في الدنيا والإقبال على الآخرة

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

أحبتي في الله، نحن على موعد مع زهد العابد سالم بن عبد الله بن عمر، يذكر أن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك دخل الحرم ليطوف، فوجد سالم ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وحذاؤه بيده - وهو زاهدٌ عابد يقولون عنه: ثَمَّنَّا ما عليه فوجدناها بثلاثة عشر درهماً - فمر سليمان بالموكب ومعه الوزراء والأمراء، فلما رأى سالمًا توقف واقترب منه ليقبل يده لأنه عالم الأمة، فسحبها، فقال له سليمان: يا سالم! ألك إلي حاجة؟ قال سالم: يا سليمان! أما تستحي من الله؟ أتعرض عليّ المسائل في بيت الله؟ فتركه، فلما خرج عرض عليه السؤال، قال: ألك إلي حاجة؟ قال: من حوائج الدنيا أم من حوائج الآخرة؟ قال: بل من حوائج الدنيا، أما الآخرة فلا يملكها إلا الله، قال: والله الذي لا إله إلا هو، ما سألت حوائج الدنيا من الذي يملكها وهو الله، فكيف أسألها منك؟ (٥٧).

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فِي مَعْلَقَاتِ صَاحِبِ الْبَخَارِيِّ كَلِمَةً تُسَجَّلُ بِمَاءِ الذَّهَبِ: ارْتَحَلْتُ الدُّنْيَا مُدْبِرَةً وَارْتَحَلْتُ الْآخِرَةَ مُقْبِلَةً وَلِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الْآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ الْيَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابَ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ.

وهذا مصداقاً لقول الله تعالى: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى} [النساء: ٧٧].

أخي الحبيب، قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: الزهد ترك ما لا ينفع في الآخرة، وقال سفيان: الزهد في الدنيا قصر الأمل، أي: أن تشعر أن

الدنيا ذاهبة وأن حياتك فيها قليلة، وذكر الإمام أحمد رحمه الله تعالى أيضاً في كتابه الزهد قال: الزهد على ثلاثة أنواع:

الأول: ترك الحرام: وهو زهد العوام.

الثاني: ترك الفضول من الحلال: وهو زهد الخواص.

الثالث: ترك ما يُشغل عن الله: وهو زهد أولياء الله العارفين بالله تعالى.

وقال أيضاً: الزاهد لا يفرح من الدنيا بوجود ولا يأسف منها على مفقود.

أي: إذا جاءه شيء من المال من الدنيا مثلاً لم يتعلق قلبه به، ويسيطر حب هذا الشيء على قلبه، وأيضاً إذا فاته شيء من الدنيا كأن يكون خسر مالاً، أو ذهب له ولد، لا ييأس ويتأسف للتأسف المنهي عنه شرعاً، فنحن بشر والإنسان لا بد أن يسر إذا جاءه مال، ولا بد أن يشعر بشيء من الضيق ويشعر بشيء من الأسف إذا فاته شيء من الدنيا أو خسر.

لكن إلى أي درجة يكون الفرح بالمال؟ وإلى أي درجة يكون التأسف على فقده؟ فبعض الناس سروره بالمال طبيعي عادي حسب الفطرة التي في النفس، فالنفس مجبولة على حب المال والسرور بكسبه، فالإنسان إذا ذهب يقبض الراتب يكون مسروراً في قبض الراتب، فإذا فلس في آخر الشهر صار فيه نوع من الغم الطبيعي، لكن إلى أي وضع هو يكون مسروراً بالمال؟ كأنه يريد أن يأكله أكلاً، كما فعل ذلك البخيل لما أقبل على الموت أكل المال حتى لا ينتفع به غيره، هذا غير طبيعي.

وقيل للإمام أحمد رحمه الله تعالى: أيكون الرجل زاهداً ومعه ألف دينار؟ قال: نعم، شريطة ألا يفرح إذا زادت ولا يحزن إذا نقصت، بمعنى: أن قلبه غير متعلق بالمال، فإذا زادت لا يشعر كأنه صلى ألف ركعة، وإذا نقصت يغتم كأنه وقع في المعاصي، وإلا صار عنده المال أهم من الدين.

فمثلاً: شخص عنده تجارة، كيف يعرف أنه زاهد أم لا؟

إذا رأى أن التجارة تشغله عن طاعة الله، ويؤخر صلوات، ويتأخر

عن المساجد، وعن دروس العلم والحلق والإخوة في الله، وصار إنساناً دنيوياً، فهو ليس بزاهد.

وإذا رأى أن التجارة لم تقطعه عن العبادة، ولا عن المسجد، والإخوة في الله، وحلق العلم، ويعطي الزكاة والصدقات ويتصدق، وكلما جاءه فقير أعطاه، ويعطي للمجاهدين ولبناء المساجد.. الخ، فهو زاهد.

فالزهد ألا يفرح من الدنيا بوجوده، ولا يأسف منها على مفقوده، كما قال تعالى: {لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} [الحديد: ٢٣] أي: أن الله عز وجل كتب كل المصائب في اللوح المحفوظ: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (٢٢) لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ} [الحديد: ٢٢ - ٢٣] أي: من قبل أن نخلقها في الأرض، لماذا؟ ما هو السبب والحكمة؟ لأنك لو كنت مؤمناً وموقناً بأن هذا مكتوب عند الله قبل أن يحدث لك، سواء جاءك لا تطير به فرحاً، كأنه هو كل شيء، ولو فقدته فلا تنزل فيه غمرات اليأس، لأنه ليس كل شيء، وهو أمر مكتوب ومقدر ومقضي، انتهى وقضي الذي في الكتاب، شيء قد قضاه الله عز وجل، فلا تفرح به أكثر مما يجب شرعاً، ولا تغتم لفقده أكثر مما يصلح شرعاً (٦٤).

والأحاديث في ذم الدنيا وفضل الزهد كثيرة جداً، ومن أروع أحاديث الزهد الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَنْكِبِي: «فَقَالَ كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ»، وَكَانَ بُنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يَقُولُ: إِذَا أَمْسَيْتَ فَلَا تَنْتَظِرُ الصَّبَاحَ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ فَلَا تَنْتَظِرُ الْمَسَاءَ، وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ^(١).

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: نَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ فِي جَنْبِهِ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: لَوْ اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً - أَي غطاءً - ؟
فَقَالَ: «مَا لِي وَمَا لِلدُّنْيَا؟! مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاحِبٍ اسْتِظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٥٩٣٧.

رَاحَ وَتَرَكَهَا»^(١).

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: أَتَى النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمَلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أَزْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبِّكَ اللَّهُ وَأَزْهَدُ فِيهَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ»^(٢).

معاشر الإخوة، الزهد أقسام:

الأول: زهد في الحرام، وهو فرض عين.

الثاني: زهد في الشبهات، وهو بحسب مراتب الشبهة، فإن قويت ألحقت بالقسم الواجب، وإن ضعفت كان تركها مستحباً، والزهد فيها أولى.

الثالث: الزهد في الفضول: يعني في المباحات، الأشياء الزائدة عن الإنسان أي: الترفهيات والكماليات.

الرابع: زهد فيما لا يعني من الكلام. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «مَنْ حُسِّنَ إِسْلَامَ الْمَرْءِ تَرَكَّهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(٣).

الخامس: الزهد في التطفل، فيقول من أين جئت؟ وإلى أين سوف تذهب؟ ومن كان معك؟ ومن كنت تكلم قبل قليل؟ ومن ومن؟ فَعَنْ الْمُغْبِرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ: عُقُوقَ الْأُمَّهَاتِ، وَوَادَ الْبَنَاتِ، وَمَنْعَ وَهَاتٍ وَكَرِهَ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ»^(٤).

السادس: الزهد في المدح والثناء، فلا يطلب المدح والثناء، بل يزهده.

السابع: الزهد بالنفس في المعركة وفي قتال المشركين مثلاً.

(١) (صحيح لغيره) أخرجه (ت هـ) وصححه الألباني في صت ٣٢٨٢.

(٢) (صحيح) أخرجه (هـ) ٤٠١٢ وصححه الألباني

(٣) (صحيح) أخرجه (ت هـ) وصححه الألباني في ص. ج ٥٩١١.

(٤) (صحيح) أخرجه (خ) ٢٢٧٧، و(م) ٥٩٣.

الثامن: وهو أفضلها وأهمها: إخفاء الزهد (٦٤).
(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب

إليك)

* * *

الدرس الثاني والخمسون:

طلب العلم الشرعي

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة رجل من بني إسرائيل قتل تسعة وتسعين نفسا وأراد أن يتوب، أخرج مسلم في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال: «كَانَ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ: لَا فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ بِهِ مِائَةً، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يُحَوِّلْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ، انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أَنْاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فاعْبُدْ اللَّهَ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضٌ سَوْءٌ، فَاَنْطَلِقْ حَتَّى إِذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الْمَوْتُ، فَاخْتَصَمَتْ فِيهِ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةُ الْعَذَابِ، فَقَالَتْ: مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللَّهِ، وَقَالَتْ: مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ فِي صُورَةِ آدَمِيٍّ، فَجَعَلُوهُ بَيْنَهُمْ، فَقَالَ: قِسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ، فإِلَى أَيَّتَهُمَا كَانَ أَذْنِي، فَهُوَ لَهُ فِقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَذْنِي إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ فِقَبَضَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ قَالَ قَتَادَةُ فَقَالَ الْحَسَنُ ذَكَرْنَا أَنَّهُ لَمَّا أَتَاهُ الْمَوْتُ نَأَى بِصَدْرِهِ» (١).

من هذه القصة يتضح لنا فضل العلماء على العباد، فالعابد قال لهذا الرجل الذي قتل تسعا وتسعين نفسا: ليس لك توبة فأيسه من رحمة الله جل وعلا، والعالم قال له: ومن يحول بينك وبين التوبة؟ فكان سببا في مغفرة الذنوب لهذا القاتل، وهذا مصداقا لقول الله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٩)} {الزمر: ٩}.

(١) (صحيح) أخرجه (م) ٢٧٦٦.

معاشر الإخوة، قال فضيلة الدكتور صالح الفوزان في كتاب (أثر العلم الشرعي في مواجهة العنف والعدوان): كثير ممن يرتكبون الكبائر، ويسرفون على أنفسهم بالمعاصي، أو يتساهلون بظلم العباد وبخسهم حقوقهم، لا يعلمون أن فعلهم هذا من المحرمات الكبائر، وإن عرفوا تحريمه فإنهم لا يدركون العواقب السيئة في الدنيا وفي الآخرة، فيتساهلون في فعله، ولو علموا ما ورد في هذا المنكر من الوعيد والعذاب الشديد، لما ارتكبوه أو أصروا عليه، ومما سبق يتبين لنا أمران مهمان:

أولاً: حاجتنا بل اضطرارنا إلى معرفة الحق وطلب العلم الشرعي؛ فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ»^(١).

وهذا يشمل كل علم يتوقف عليه القيام بالواجب أو ترك المحرم، فتعلمه فرض عين على كل مسلم مكلف، أما ما زاد على ذلك من العلوم الشرعية أو الدنيوية التي تحتاجها الأمة، فهذه تعلمها فرض كفاية، إذا قام بها من يكفي من سائر أمة الإسلام، وسدت بهم حاجة الأمة، فقد حصل المقصود، وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الاشتغال بالعلم تعلمًا وتعليمًا أفضل من الاشتغال بناوقل العبادات التي يقتصر نفعها على صاحبها، وأن من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع، ومن يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، وبين الفرق الواسع بين العالم البصير والعابد الجاهل، فقال: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا؛ سَلَكَ اللَّهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أجنحتها رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالْحَيَاتَانِ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا وَرَثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطِّ وَافِرٍ»^(٢).

ثانياً: وجوب الحذر من الأئمة المضلين، والجهلة المتعالمين،

(١) (صحيح) أخرجه (طص خط) وصححه الألباني في ص.ج ٣٩١٣.

(٢) (صحيح) أخرجه (حم ٤ حب) وصححه الألباني في ص.ج ٦٢٩٧.

والمصدرين للفتوى وليسوا من أهلها، ولهذا أمرنا الله تعالى بسؤال أهل الذكر فقال: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [الأنبياء: ٧].

وأهل الذكر هم العلماء الراسخون، الذين شهدت لهم الأمة بالعلم والإمامة في الدين، أما أدعياء العلم، والمتطفلون على موائد العلماء، فليسوا أهلاً لأن يستفتوا ويصدر عن رأيهم، وخصوصاً في الأمور العامة التي تمس مصالح الأمة.

إخوتي في الله، هناك أسباب متعددة لتفضيل العالم البصير على العابد الجاهل، نذكر منها:

١ - أن العالم أعرف بالله ﷻ وحقوقه، وأكثر محبةً له وتعظيمًا لجنابه، ورجاءً لثوابه، وخوفًا من عقابه، فمن كان بالله أعرف كان منه أخوف، ولهذا قال ربنا سبحانه: {إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ} [فاطر: ٢٨].

٢ - أن العلم النافع يعصم صاحبه بتوفيق الله من الانحراف والضلال، ويحميه من الوقوع في البدع والمحدثات، بخلاف العابد الجاهل، فإنه قد يقع في شيء من هذه المخالفات بسبب جهله، وربما يتقرب إلى الله بما لم يأذن به الله، ويشركون بالله تعالى، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

٣ - أن العلم نور يهدي إلى الحق، وينير الطريق للسالكين، وبه يُميز بين الإيمان والكفر، والمصلحة والمفسدة، والخير والشر، ولهذا أمرنا ربنا ﷻ بالرجوع إلى العلماء الربانيين في الأمور التي تهم الأمة.

٤ - أن عمل العابد مهما عظم، فإن نفعه قاصر على نفسه، بخلاف العالم فنفعه متعدٍ إلى غيره (٣).

معاشر الإخوة، إن تاريخنا مليء بالنماذج المشرفة لأهل التربية والهمم العالية، فهذا سفيان بن سعيد الثوري رحمه الله تعالى يقول: دعنتي أمي، وكانت ذات همة وحرص على العلم، فقالت: يا بني! إن لدي همة لجمع العلم، وإنني امرأة لا أستطيع أن أغشى مجالس الرجال، ولكنني سأكفيك أمر الدنيا بمغزلي، وتكفيني أنت أمر العلم، فكانت تلك المرأة ذات مغزل فتبيع ما غزلته من الصوف، وتنفق به على ولدها، وتصدق عليه الأموال التي يتزود به لأسفاره، ويجمع بها الكتب، ويستطيع بها

التفرغ لطلب العلم، فاشتركا في الأجر: فالمرأة تغزل الصوف وتبيعه، والرجل تفرغ لطلب العلم حتى أصبح إماماً من أئمة المسلمين.

وكذلك مالك بن أنس رحمه الله تعالى يقول: دعنتني أمي، وكنت أشتغل بضرب العود، أي بتعلم الغناء في ذلك الوقت وهو صغير، فقالت: يا بني! إنها حرفة لا تصلح لك، فعممتني بعمامة، وكستني ثوباً أبيض، وأعطتني صرة من الدراهم، وقالت: اذهب إلى المسجد فلا ترجع إليّ حتى تكون رأس الحلقة. وهذا ربيعة بن فروخ وهو ربيعة بن أبي عبد الرحمن شيخ الإمام مالك، الذي اشتهر بربيعة الرأي، ما رباه إلا أمه، فإن أباه خرج في الغزوة فمكث أربعاً وعشرين سنة في غزوة من الغزوات، وقد ترك ولده حملاً، فلما رجع وقفل من غزوته جاء إلى بيته فاستقبله رجل، فدخل في عراك حتى عرف أنه ولده الذي تركه حملاً، وإذا هو عالم المدينة إذ ذاك دون منافس، فسأل امرأته عن المال الذي تركه عندها، قالت: أنفقته على ولدك حتى أصبح عالم المدينة.

وهذا أبو يوسف القاضي كان نكياً وكان أبوه يحرص على تعليمه بعض المهن الدنيوية، يريد أن ينال من ورائه كسباً مادياً، فكان يمر على حلقة أبي حنيفة فيسمعه يناظر في الفقه فتعجبه المناظرة، فيجلس إليه، فراه أبو حنيفة فأعجب به، فامتحنه، فأعجب بذكائه، فقال: اجلس إليّ حتى تحمل عني بعض هذا العلم الذي لديّ فقال: إن أبي يمنعني ذلك، فقال: وما حاجة أبيك إليك، قال: يريد مالاً، فقال أبو حنيفة: أنا أكفيك ذلك، فكأن

أبو حنيفة يعطيه مالاً يقدمه لأبيه كل شهر، ويجلسه هو في مجلسه يتعلم، حتى أصبح الناس يقولون عن أبي يوسف: صورة طبق الأصل من أبي حنيفة (٦١).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

الدرس الثالث والخمسون: التجارة الرابعة ذكر الله تعالى

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة لسليمان بن داود عليهما السلام في (حلية الأولياء)، فعن وهب بن منبه قال: كان لسليمان بن داود عليهما السلام ألف بيت أعلاه قوارير، وأسفله حديد، فركب الريح يوما فمر بحراث، يحرث فنظر إليه الحراث - أي الفلاح - فقال: لقد أوتي آل داود ملكا عظيما، فحملت الريح كلامه فألقته في أذن سليمان عليه السلام قال: فنزل حتى أتى الحراث وقال: إني سمعت قولك وإنما مشيت اليك لنلا تتمنى ما لا تقدر عليه، لتسبيحة واحدة يتقبلها الله تعالى منك خير مما أوتي آل داود، فقال الحراث: أذهب الله همك كما أذهبت همي (٢٤).

لقد أمرنا الله ﷻ بذكره كثيرا بكرة وعشيا عند الصباح والمساء، وأدبار الصلوات المفروضات، وعند العوارض والأسباب قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢)}

[الأحزاب: ٤١ - ٤٢].

إخوتي في الله، اذكروا الله ذكرا كثيرا وسبحوه بكرة وأصيلا، كونوا من أولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، كونوا من الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب وتتفرج الكرب، بذكر الله يحصل النصر ويثبت القلب في مواطن الفزع، ولذلك أمر الله تعالى بذكره عند مقابلة الأعداء في الحرب فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [الأنفال: ٤٥]، إن ذكر الإنسان ربه يملأ قلبه سرورا ويكسو وجهه نورا ويذكره الله به، يقول الله تعالى في القرآن الكريم: {فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ} [البقرة: ١٥٢].

ويقول تعالى في الحديث القدسي الذي رواه النبي ﷺ عنه: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأَ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ»^(١)، وقال النبي ﷺ: «سَبَقَ الْمَفْرُودُونَ»^(٢)، وقال: «وَمَا الْمَفْرُودُونَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الذَّاكِرُونَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتُ»^(٣)، وقال النبي ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ»^(٤).

فاتقوا الله عباد الله وأكثروا من هذه المكاسب العظيمة بأعمال يسيرة، أكثروا من ذكر الله عز وجل بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم، ليكن ذكر الله تعالى في قلوبكم قيامًا وقعودًا وعلى جنوبكم كونوا متذكرين دائمًا لعظمته وجلاله وكمال أسمائه وصفاته وأفعاله، واعلموا أن كل قول من الخير تريدون به وجه الله فهو من ذكر الله. اذكروا الله تعالى بجوارحكم بفعل الطاعات وترك المعاصي فإن كل فعل أو ترك تقومون به طاعة لله وتقربًا إليه فهو من ذكر الله. أكثروا من ذكر الله تعالى ولا تكونوا ممن أغفل الله قلبه عن ذكره واتبع هواه وكان أمره فرطًا. أكثروا من ذكر الله قبل أن يحال بينكم وبينه إما بالموت أو بالعجز أو بحرمانكم منه عقوبة على غفلتكم.

أخي المسلم، لا يشغلنك عن ذكر الله مال ولا بنون فإنما: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} [الكهف: ٤٦]، والباقيات الصالحات كل عمل صالح وعلى رأسها قول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وذكر الله تعالى غنيمة وربح، وإن الغفلة عن ذكره غرم وخسارة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ، وَلَمْ يَصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إِلَّا كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةٌ - أي النقص والحرمان -؛ فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ»^(٥).

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٦٩٧٠ و (م) ٢٦٧٥ واللفظ للبخاري.

(٢) (صحيح) أخرجه (م) ٢٦٧٦.

(٣) (صحيح) أخرجه (خ) ٦٠٤٤.

(٤) (صحيح) أخرجه (ت) وصححه الألباني في مش ٢٢٧٤.

وللذكر فوائد كثيرة نذكر منها ما يلي:

١ - ذكر الله يرضي الرحمن ويطرد الشيطان، فعن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ إِنَّهُ: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ فَذَكَرَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: مَا مِنْ مَبِيتٍ وَلَا عَشَاءٍ هَاهُنَا، وَإِذَا دَخَلَ وَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ» (١).

٢ - الذكر يرفع ميزان العبد يوم القيامة، فعن أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الطُّهُورُ شَطْرُ الْإِيمَانِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأُ الْمِيزَانَ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلَأَانِ أَوْ تَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءَاتِ وَالْأَرْضِ» (٢).

وعن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَنْ أَقُولَ سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ» (٣).

٣ - ذكر الله يحفظ الأوقات ويجمع الشتات.

٤ - ذكر الله يجلب أعظم الفوائد ويعين على الشدائد، فعند المصيبة تقول: إنا لله وإنا إليه راجعون! هذه تعينك على الشدائد وتجمع لك أعظم الفوائد.

٥ - الذكر أسهل الأعمال وأشرف الخصال، ما أسهل الذكر! وأنت على فراشك يمكن أن تسبق الصائم المنفق والمصلي؛ فاذا ذكر الله بحضور قلب.

٦ - الدوام على ذكر الله حصن وحبل من الحق متين فلا تأتيك الوسواس، وما ظهرت الأمراض النفسية وفتحت المستشفيات إلا من قلة ذكر الذاكرين وإعراضهم عن الوضوء والصلاة، وقراءة القرآن وأذكار الصباح والمساء.

٧ - التعود على الذكر يكسو الوجه الاطمئنان والوقار، قال تعالى:

{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}

[الرعد: ٢٨].

ومن علامات الإيمان كثرة ذكر الله تعالى، فاشغلوا ألسنتكم بذكر الله،

(١) (صحيح) أخرجه (حم م د ه) وصححه الألباني في ص. ج ٥١٩.

(٢) (صحيح) أخرجه (م) ٢٢٣.

(٣) (صحيح) أخرجه (ت) ٣٥٩٧ وصححه الألباني.

جاء رجل إلى الحسن البصري رحمه الله تعالى، فقال له: إني تاجرت فخسرت، قال: عليك بالاستغفار! ثم جاءه آخر، فقال له: إني عقيم لا يولد لي، فقال له: عليك بالاستغفار! ثم جاءه ثالث، فقال: إن بلادنا قد وقف عنها المطر وقحطت وأجدبت الأرض، قال: عليك بالاستغفار! فقال له رجل: يا أبا سعيد: شكوا إليك أمراضاً شتى، وذكرت لهم دواءً واحداً! قال: إن الله تعالى يقول: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (١٢)} [نوح: ١٠ - ١٢]. وَعَنْ زَيْدِ مَوْلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ غُفِرَ لَهُ وَإِنْ كَانَ قَرَّ مِنَ الرَّحْفِ» (١).

وكذلك فإن للصلاة على رسول الله ﷺ فضلاً عظيماً فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ، وَحُطَّتْ عَنْهُ عَشْرُ خَطِيئَاتٍ، وَرُفِعَتْ لَهُ عَشْرُ دَرَجَاتٍ» (٢). وأفضل صيغة للصلاة على رسول الله ﷺ هي الصلاة الإبراهيمية في التشهد الأخير، ويستحب الصلاة على رسول الله ﷺ عقب الأذان، وأول الدعاء وأوسطه وآخره، وفي صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية، وعند ذكر رسول الله ﷺ، وعند الدخول والخروج من المسجد، ويوم الجمعة وليلتها، وعند القيام من المجلس، وفي خطبة النكاح، وفي خطبة الجمعة والعديد والاستسقاء، وعند الكرب والهَم، وعند ختم الكلام...

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

(١) (صحيح) أخرجه (ت) ٢٨٣١ وصححه الألباني.

(٢) (صحيح) أخرجه (حم خد ن ك) وصححه الألباني في ص. ج ٦٣٥٩.

الدرس الرابع والخمسون:

سلاح غفل عنه المؤمنون ألا وهو الدعاء

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة ذكرها ابن كثير في تفسيره ذكر فيها: أن رجلاً حكى عنه أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالدقي الصوفي قال هذا الرجل: كنت أكارى - أحمل الناس بالأجرة - على بغل لي من دمشق إلى بلد الزبداني، فركب معي ذات مرة رجل فمررنا على بعض الطريق على طريق غير مسلوكة فقال لي: خذ في هذه - أي اسلك هذه الطريق - فإنها أقرب، فقلت: لا خبرة لي فيها، فقال: بل هي أقرب، فسلكناها فانتهينا إلى مكان وعر وواد عميق وفيه قتلى كثيرة فقال لي: أمسك رأس البغل حتى أنزل، فنزل وتشمر وجمع عليه ثيابه وسل سكيناً معه وقصدي، ففررت من بين يديه وتبعني، فناشدته الله وقلت: خذ البغل بما عليه، فقال هو لي: وإنما أريد قتلك، فخوفته الله والعقوبة فلم يقبل، فاستسلمت بين يديه وقلت: إن رأيت أن تتركني حتى أصلي ركعتين فقال: عجل، فقمت أصلي فأرتج عليّ القرآن فلم يحضرني منه حرف واحد، فبقيت واقفاً متحيراً وهو يقول: هيه افرغ، فأجرى الله على لساني قوله تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} [النمل: ٦٢]، فإذا أنا بفارس قد أقبل من فم الوادي وبيده حربة فرمى بها الرجل فما أخطأت فواده فخر صريعاً، فتعلقت بالفارس وقلت: بالله من أنت؟ فقال: أنا رسول الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، قال: فأخذت البغل والحمل ورجعت سالمًا. ولا عجب فمن توكل على الله ومن التجأ إلى الله أجاب دعاءه وحفظه ولو كادته السماوات والأرض لجعل الله له من ذلك فرجا ومخرجاً.

معاشر الإخوة، سلاح عظيم غفل عنه المؤمنون، لن يهلك معه أحد

بإذن الله، إنه الدعاء، الالتجاء إلى رب الأرض والسماء، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)} [البقرة: ١٨٦].

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية: إن أعرابياً قال: يا رسول الله، أقریب ربنا فنناجیه أم بعید فننادیه؟ فسكت النبي ﷺ، فنزلت الآية، وقال ابن جریر عن عطاء: أنه بلغه لما نزلت: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر: ٦٠]، قال الناس: لو نعلم أي ساعة ندعو؟ فنزلت: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ} [البقرة: ١٨٦]، وعن أبي موسى ؓ قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَجَعَلْنَا لَا نَصْعَدُ شَرْفًا - أَي مَوْضِعًا مَرْتَفِعًا يَشْرَفُ عَلَى مَا حَوْلَهُ - وَلَا نَعْلُو شَرْفًا وَلَا نَهْبِطُ فِي وَادٍ إِلَّا رَفَعْنَا أَصْوَاتَنَا بِالتَّكْبِيرِ قَالَ: فَدَنَا مِنَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَرْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلَا غَائِبًا إِنَّمَا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا ثُمَّ قَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَةً هِيَ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ - أَي إِنْ قَوْلَهَا يَحْصُلُ بِهِ ثَوَابًا نَفِيسًا فِي الْجَنَّةِ -» (١).

وللدعاء فضائل جمّة نذكر منها:

١ - الدعاء سبب لدفع غضب الله، فعن أبي هريرة ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ» (٢).

٢ - الدعاء سبب لرفع البلاء بعد نزوله، فعن ابن عمر ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ فُتِحَ لَهُ مِنْكُمْ بَابُ الدُّعَاءِ فَتَحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ، وَمَا سُئِلَ اللَّهُ شَيْئًا يَعْنِي أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ الْعَافِيَةَ» (٣).

ولقبول الدعاء عدة شروط نذكر منها:

١ - الإخلاص قال تعالى: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤)} [غافر: ١٤].

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٦٢٣٦.

(٢) (حسن) أخرجه (ت) ٣٣٧٣ وحسنه الألباني.

(٣) (صحيح) أخرجه (ت) ٣٥٤٨ وصححه الألباني.

٢ - تحري الحلال في المطعم والمشرب والملبس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} وَقَالَ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُّوَا مِنَ الطَّيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ} ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ يَا رَبَّ يَا رَبَّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ وَغَدِي بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ» (١).

٣ - عدم الاستعجال، فكثير من الناس يتوقع أن الله سوف يستجيب الدعاء في التو واللحظة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلْعَبْدِ مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ مَا لَمْ يَسْتَعْجَلْ» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الْإِسْتِعْجَالُ؟ قَالَ: «يَقُولُ: قَدْ دَعَوْتُ وَقَدْ دَعَوْتُ فَلَمْ أَرِ يَسْتَجِبْ لِي؛ فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذَلِكَ وَيَدْعُ الدُّعَاءَ» (٢).

٤ - الدعاء بالمباح، فعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا عَلَى الْأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللَّهَ بِدَعْوَةٍ إِلَّا آتَاهُ اللَّهُ إِيَّاهَا أَوْ صَرَفَ عَنْهُ مِنَ الشُّوْءِ مِثْلَهَا، مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمَ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: إِذَا نَكُرْتُ، قَالَ: «اللَّهُ أَكْثَرُ» (٣).

٥ - الإكثار من دعاء الله تعالى في الرخاء. فعن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ» (٤).

إخوتي في الله، للدعاء آداب نذكر منها:

١ - دعاء الله بأسمائه الحسنى، قال تعالى: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ} [الأعراف: ١٨٠].

٢ - الإلحاح في الدعاء والعزم في المسألة، فعن أنس رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ

(١) (صحيح) أخرجه (م) ١٠١٥.

(٢) (صحيح) أخرجه (م) ٢٧٣٥.

(٣) (صحيح) أخرجه (ت) وصححه الألباني في صت ١٦٣١.

(٤) (حسن) أخرجه (ت طب حكم) وحسنه الألباني في ص. ج ٦٢٩٠.

الله ﷻ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلْيَعِزِّمْ الْمَسْأَلَةَ، وَلَا يَقُولَنَّ: اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ فَأَعْطِنِي فَإِنَّهُ لَا مُسْتَكْرِهَ لَهُ» (١).

٣ - عدم التعدي في الدعاء: قال الله تعالى: {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} [الأعراف: ٥٥]، والتعدي شيء يخالف الشرع مثل: أن يدعو العبد أن يكون نبياً من الأنبياء، أو يدعو الله أن يرزقه الله الولد وهو ليس بمتزوج.

٤ - توخي الأوقات الفاضلة، مثل الدعاء في ليلة القدر، وجوف الليل الآخر، ودُبْر الصلاة المكتوبة، وبين الأذان والإقامة، وعند نَزول الغيث، وساعة من يوم الجمعة، وعند شرب ماء زمزم مع النيّة الصادقة، وعند السجود، والدُّعاء بعد الثناء على الله والصلاة على النبي في التشهُد الأخير، والدُّعاء يوم عَرَفَةَ في عَرَفَةَ، دُعَاء المظلوم على من ظلمه، ودُعَاء المسافر، ودُعَاء الصائم حَتَّى يُفْطِرَ وَعِنْدَ فِطْرِهِ، ودُعَاء المُضْطَرِّ.

٥ - ترك السجع والتكلف، وتجنب ما يفعل البعض في دعاء القنوت.

٦ - الدعاء بجوامع الأدعية: ومن الأدعية الجوامع: رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، اللهم إني أسألك العفو والعافية، اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى.

٧ - الإسرار في الدعاء وعدم رفع الصوت، يقول عز من قائل في الذكر: {وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً} [الأعراف: ٢٠٥] (٥٧).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٥٩٧٩، و(م) ٢٦٧٨ واللفظ للبخاري.

الدرس الخامس والخمسون: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع الشيخ العز بن عبد السلام وسُلطان مصر، قال التاج السبكي: سمعت الشيخ الإمام يقول: سمعت شيخنا الباجي يقول: طلع شيخنا عز الدين مرة إلى السلطان في يوم عيد إلى القلعة. فشهد العساكر مصطفىين بين يديه، ومجلس المملكة، وما السلطان فيه يوم العيد من الأبهة، وقد خرج على قومه في زينته على عادة سلاطين الديار المصرية، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدي السلطان، فالتفت الشيخ إلى السلطان وناداه، يا أيوب، ما حجتك عند الله إذا قال لك: ألم أبوء لك ملك مصر ثم تبيح الخمر؟ فقال: هل جرى هذا؟ فقال: نعم، الحانة الفلانية يباع فيها الخمر، وغيرها من المنكرات، وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة - كان يناديه بأعلى صوته، والعساكر واقفون - فقال: ياسيدي هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي، فقال أنت من الذين يقولون {بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ} [الزخرف: ٢٢]، فرسم السلطان بإبطال تلك الحانة (٣٩).

وقد بين الله تعالى عظم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مواطن كثيرة في كتابه، فقال تعالى: {لَعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ} (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} (٧٩) [المائدة: ٧٨ - ٧٩].
وَعَن أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ؓ أَنَّهُ قَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَفَرُّوْنَ هَذِهِ الْآيَةَ {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة: ١٠٥]، وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوْا الظَّالِمَ

فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعْمَهُمُ اللَّهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ» (١).

حيث يظهر لبعض الناس أن معنى قوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ} [المائدة: ١٠٥] أي: أقيموا أمر الله في نفوسكم، والتزموا أوامر الله ولا عليكم من الآخرين، وهذا خطأ، فإن معنى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ} [المائدة: ١٠٥] أي: إذا أمرتم بالمعروف، ونهيتم عن المنكر، فلا يأتاكم ضرر إذا وقع العذاب {لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ} [المائدة: ١٠٥]، أي: بعد أن تأمروا وتنهوا.

وهذا مصداقا لقول الله تعالى: {وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَدِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَيِّنٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥)} [الأعراف: ١٦٤ - ١٦٥]

وهاتان الآيتان نزلتا في جماعتين من بني إسرائيل يقول الله تعالى: واذكر - أيها الرسول - إذ قالت جماعة منهم - أي من بني إسرائيل - لجماعة أخرى كانت تعظ المعتدين في يوم السبت، وتنهاهم عن معصية الله فيه: لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ فِي الدُّنْيَا بِمَعْصِيَتِهِمْ إِيَّاهُ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الْآخِرَةِ؟ قال الذين كانوا ينهونهم عن معصية الله: نَعْظُهُمْ وَنَنَاهَاهُمْ لِنُعَذِّبَ فِيهِمْ، ونؤدي فرض الله علينا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورجاء أن يتقوا الله، فيخافوه، ويتوبوا من معصيتهم ربهم وتعذيبهم على ما حرّم عليهم. فلما تركت الطائفة التي اعتدت في يوم السبت ما ذُكرت به، واستمرت على غيها واعتدائها فيه، ولم تستجب لما وَعَظَتْهَا بِهِ الطائفة الواعظة، أنجى الله الذين ينهون عن معصيته، وأخذ الذين اعتدوا في يوم السبت بعذاب أليم شديد؛ بسبب مخالفتهم أمر الله وخروجهم عن طاعته.

وقال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ} [آل عمران: ١١٠]، فهذه الآية الكريمة أفادت معنيين: الأول خيرية هذه الأمة - أي أمة الإسلام -، والثاني: أنها حازت

(١) (صحيح) (د ت ه) وصححه الألباني في ص. ج ١٩٧٣

هذه الخيرية لقيامها بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهي وظيفة رسول الله ﷺ ورسَل الله جميعاً، وأول ما يدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الدعوة الى الله وحده والبراءة من الشرك بأنواعه، بل إن القرآن الكريم جعل من صفات المؤمنين الدعوة إلى الله، بخلاف المنافقين الذين يصدون عن سبيل الله ويدعون إلى غيره، وقال تعالى: {الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِّنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ} [التوبة: ٦٧]، ثم قال تعالى بعد ذلك: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} [التوبة: ٧١]، قال القرطبي رحمه الله تعالى في تفسير هذه الآية الكريمة: فجعل الله تعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فارقاً بين المؤمنين والمنافقين، فدل على أن أخص أوصاف المؤمنين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ورأسها الدعوة إلى الإسلام (٢٨).

وأخرج الترمذي عن حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرَنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُوهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ» (١).

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ قَالَ قَالَ أَبُو سَعِيدٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ رَأَى مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَوْعَفُ الْإِيمَانِ» (٢).

ويختلف تطبيق هذا الحديث مع أصناف الناس المختلفة، فمن رأى منكم منكراً فليغيره بيده، هذا لأهل السلطة التنفيذية، للقضاة والأمراء، لمن في يدهم سوط وسيف، فهذا القسم لهم فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه وهذا للدعاة وللعلماء وطلبة العلم، فمن لم يستطع فبقلمه وهذا للذي لا يملكون حجة وبياناً ولا سيفاً ولا سناناً، فهم: ليسوا من العلماء والدعاة،

ولا من الأمراء والقضاة، فعلى هؤلاء أن ينكروا بقلوبهم.

(١) (حسن) أخرجه (ت) ٢١٦٩ وحسنه الألباني

(٢) (صحيح) أخرجه (حم م ٤) وصححه الألباني في ص.ج ٦٢٥٠

أخي الحبيب، يلزم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر توافر عدة أمور منها:

الأول: العلم بالمعروف والمنكر، ولا يُعلم المعروف والمنكر إلا بالكتاب والسنة.

الثاني: الحكمة في الأمر والحكمة في النهي، مثل من يريد تغيير منكر فيجر على الأمة سفك الدماء، واختلاف الكلمة، وتشتيب الأطفال، وتشريد النساء، فهذا قد أساء وليس بحكيم، بل الأحسن إبقاء المنكر كما هو.

الثالث: تحصيل المصلحة من الأمر والمصلحة من النهي، ولا تكون المصلحة أقل بل تكون أعظم، فإذا علمت أن هؤلاء يعودون من الضلالة إلى الهدى، ويصلح حالهم فلك أن تأمرهم، أما إنسان يأمر بعض الناس، ويعلم أنه سوف يزداد شراً وخبثاً فالمصلحة ألا تأمر ولا تنهى.

الرابع: التدرج في المأمورات والمنهيات، فمثلاً عند أمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر تبدأ أولاً بالعقيدة، وبالفرائض، لا يصح أن تأتي إلى مجتمع لا يقيم الصلوات، فندعوه إلى تربية اللحي.

الخامس: ألا يخالف الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر قوله فعله يقول سبحانه وتعالى عن شعيب عليه السلام: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنهَآكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللّٰهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨]، لكن ليُعلم أن هذا يحتاج إلى شيء من التفصيل: وهي قضية أنه لا يلزمك أن تفعل النوافل التي تقولها، ويلزمك أن تفعل الفرائض التي تقولها للناس، فلا يلزم الداعية النوافل التي يقولها للناس أن يفعلها جميعاً لأنه قد لا يستطيع، مثل ماذا؟ مثل أن تأمر الناس بالصدقة قد لا يكون عندك عشاء ليلة، فمن أين تتصدق؟ وهذا لا يمنعك عن دعوتهم إلى الصدقة، أما الفرائض فلا، قال تعالى: {اتَّأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٤٤] [٥٧].

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

الدرس السادس والخمسون:

الدعوة إلى الله

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد...

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة الشيخ عبد الحميد الجزائري رحمه الله كما ورد في (تاريخ الجزائر): أن المندوب الفرنسي أيام الاستعمار كان يقول بكل صراحة: جننا لطمس معالم الإسلام، واستدعى الشيخ عبد الحميد وقال له: إما أن تطلع عن تلقين تلاميذك هذه الأفكار، وإلا أرسلت الجنود لثقل المسجد وإخماد أصواتكم المنكرة، فقال الشيخ بثبات المؤمن: إنك لن تستطيع فاستشاط غضبا وأرغى وأزبد وقال: كيف؟!

قال: إن كنت في حفل عرس علمت المحتفلين، وإن كنت في اجتماع علمت المجتمعين، وإن ركبت سيارة علمت الراكبين، وإن ركبت قطارا علمت المسافرين، وإن دخلت السجن أرشدت المسجونين، وإن قتلتموني ألهبتم مشاعر المسلمين، وخير لكم، ثم خير لكم ألا تتعرضوا للأمة في دينها، فوالله لا نقاتلكم إلا بهذا الدين، ووالله لا نقاتلكم إلا لهذا الدين.

أخي الحبيب، الداعي الأول إلى الله تعالى، هو رسولنا الكريم محمد ﷺ، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦)} [الأحزاب ٤٥ - ٤٦] (٦).

كما أن المكلف بالدعوة إلى الله هو كل مسلم ومسلمة، لأن الأمة الإسلامية تتكون منهم، فكل بالغ عاقل من الأمة الإسلامية، ذكراً كان أو أنثى، فلا يخص هذا الأمر العلماء فقط، أو كما يسميهم بعضهم أو بعض الناس رجال الدين، لأنه واجب على الجميع، وإنما يختصون بتبليغ تفاصيله وأحكامه ومعانيه نظراً لسعة علمهم به ومعرفتهم بجزئياته.

ويزيد الأمر وضوحاً وهو أن المكلف بالدعوة إلى الله تعالى هو كل مسلم ومسلمة، والدليل على ذلك قول ربنا جل جلاله: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (١٠٨) [يوسف: ١٠٨]، فأتباع الرسول ﷺ المؤمنون به، يدعون إلى الله على بصيرة أي علم ويقين، كما كان رسولهم ﷺ يدعو إلى الله على بصيرة ويقين، فالعلم شرط من شروط الدعوة إلى الله، ولكن العلم ليس شيئاً واحداً لا يتجزأ ولا يتبعض وإنما هو بطبيعته يتجزأ، فمن علم مسألة وجعل أخرى فهو عالم بالأولى جاهل بالثانية، ومعنى ذلك أن يعد من جملة العلماء بالمسألة الأولى، وبالتالي يتوفر فيه شرط وجوب الدعوة إلى ما علم دون ما جهل، ولا خلاف بين الفقهاء، أن من جهل شيئاً أو جهل حكمه أنه لا يدعو إليه (١٠).

وللدعوة إلى الله فضائل عظيمة بينها رسول الله ﷺ في سنة المشرفة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئاً، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئاً» (١).

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ يوم خيبر لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «انْفِذْ عَلَيَّ رِسَالِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ» (٢).

معاشر الإخوة، ينبغي على الدعاة البدء بترسيخ أمور العقيدة عند الناس تأسياً بسنة الحبيب، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ بعث موعظاً إلى اليمن فقال: «ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ

(١) (صحيح) أخرجه (م) ٦٧٤.

(٢) (صحيح) أخرجه (خ) ٨٨١.

تُؤَخَذُ مِنْ أَعْيُنَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ» (١).

وللدعوة إلى الله آداب كثيرة نذكر منها:

- ١ - الإخلاص في الدعوة، فتكون دعوتهم من أجل مرضاة الله ﷻ ؛ ويكون هدف الداعية هو إقامة الدين مصداقاً لقول الله تعالى عن نبي الله شعيب عليه السلام: {إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} [هود: ٨٨].
- ٢ - يلزم الداعية أن يدعو على بصيرة بالعلم النافع من الكتاب والسنة.
- ٣ - لا يعجب بعمله بل يعلم أنه مقصر، وأن الناس مقصرون.
- ٤ - يجب على الداعية ألا يهون على الناس المعاصي، بل يخوفهم من الواحد الأحد، فيكون في دعوته وسطاً بين الخوف والرجاء.
- ٥ - عدم الهجوم على الأشخاص بأسمائهم: بل يفعل كما فعل النبي ويقول: ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا، فيعرف المخطأ خطأه بدون التشهير به.
- ٦ - عدم الإحباط من كثرة الفساد والمفسدين، فهذه سنة الله في خلقه {وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} [الأحزاب: ٦٢].
- ٧ - عدم الاستدلال بالأحاديث الموضوعية بل دائماً يتأكد من صحة أقواله.
- ٨ - على الداعية أن يكون لئيماً في الخطاب، فقد كان رسول الله لئيم الكلام بشوش الوجه متواضعاً محبباً إلى الكبير والصغير.
- ٩ - على الداعية أن يعلن الدعوة للمصلحة، كالموعظة العامة في قرية أو بلدة أو في مدينة، ولكنه إذا أتى ينصح شخصاً بعينه فعليه أن يسر الدعوة، فيأخذه على حدة، ويتلطف له في العبارة.
- ١٠ - مخاطبة الناس على قدر عقولهم وينزل الناس منازلهم.
- ١١ - على الداعي أن يتألف مع الناس مرة بالهدية ومرة بالزيارة،

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ١٣٣١ و(م) ٢٩.

فيجب أن يكون الداعية اجتماعياً، وأن يشارك الناس أحزانهم وأفراحهم.
 ١٢ - ألا يخالف عمله قوله قال تعالى: {أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ
 أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [البقرة: ٤٤].
 ١٣ - أن يتنقل من الدنيا ويستعد للموت (٥٧).

الإخوة الدعاة، نصيحتي لكم أن توجهوا الشباب حديثي العهد بالالتزام
 برفق فيعطى هذا الشاب الإيمان والهدى على جرعات؛ حتى يستقيم على
 هدى الله تعالى، ولا يعني ذلك أن نتركه يمشي على معصيته، لكن عندما
 أخاطبه فيكون راغباً في الحق أعطيه قليلاً قليلاً، حتى لا يواجه معركة لا
 يستطيع أن يواجهها، فيبدأ بالأساسيات ويعالج الأمور بحكمة مع من
 حوله، وبالنسبة للعلاقة بالوالدين تقدم لهما الخير والحق والهدى، على
 طبق من المحبة والاحترام والتقدير، وقيم الحجة على الأقارب الأقرب
 بالحكمة والسهولة واللين، ولو أننا استطعنا أن ننقل أسرنا ومجتمعنا إلى
 درجة عالية من العلم؛ لفرقوا بين البدعة وبين السنة (٦٧).

ولعل من المفيد في أمر الدعوة إلى الله تعالى التحرك إلى
 من تريد دعوته، وذلك بعمل زيارات له، وقد تكون هذه
 الزيارات في المنازل، أو في الأسواق... إلخ، وللزيارة في
 الله تعالى فضائل عظيمة نذكر منها، عن أبي هريرة رضي الله عنه قَالَ:
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخَاهُ فِي اللَّهِ؛ نَادَاهُ
 مُنَادٌ أَنْ طِبْتَ، وَطَابَ مَمْسَاكَ، وَتَبَوَّاتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلًا»^(١)، ومن
 المفيد أيضاً في أمر الدعوة استخدام الهدية فقد تهديه سواكا
 أو قطعة حلوى، أو عطراً، أو تعطره... إلخ، وينبغي أن
 تختلف طريقة الدعوة تبعاً لثقافة المدعو، وعند الدعوة إلى
 الله نبدأ بالتحدث عن نعم الله تعالى علينا، ثم مقدار محبتنا لله
 تعالى باتباعنا لرسول الله لقول الله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ
 اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}
 [آل عمران: ٣١]، ثم ترغيب المدعو إلى الله للبذل لدين الله

(١) (حسن) أخرجه (ت هـ) وحسنه الألباني في ص. ج ٦٣٨٧.

هذا هو الإسلام

تعالى وذلك بحمل هم الدين بتعلم العلم الشرعي والعمل به
والدعوة إليه.

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب
إليك)

الدرس السابع والخمسون:

خلق الصبر

الحمد لله نعمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة أشهر المعوقين في تاريخ الإسلام رواها الإمام ابن حبان رحمه الله في كتاب (الثقات) لمعوق من أشهر المعوقين في تاريخ المسلمين وهو الإمام الكبير العلم أبو قلابة الجرمي عبد الله بن يزيد، وكان من الرواة عن أنس بن مالك رضي الله عنه، ويروي هذه القصة عبد الله ابن محمد، قال: خرجت الى ساحل البحر مرابطا، وكان رباطنا يومئذ في عريش مصر قال: فلما انتهيت إلى الساحل فإذا أنا ببطيحة وفي البطيحة خيمة فيها رجل قد ذهب يداه ورجلاه وثقل سمعه وبصره وما له من جارحة تنفعه إلا لسانه وهو يقول: اللهم أوزعني أن أحمدا حمدا أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلا، قال الأوزاعي: قال عبد الله قلت: والله لأتينا هذا الرجل ولأسألنه أنى له هذا الكلام؟.. فأتيت الرجل فسلمت عليه فقلت: سمعتك وأنت تقول: اللهم أوزعني أن أحمدا حمدا أكافئ به شكر نعمتك التي أنعمت بها عليّ وفضلتني على كثير ممن خلقت تفضيلا، فأني نعمة من نعم الله عليك تحمده عليها؟ وأي فضيلة تفضل بها عليك تشكره عليها؟ قال: وما ترى ما صنع ربي والله لو أرسل السماء عليّ نارا فأحرقتنى، وأمر الجبال فدمرتنى، وأمر البحار فغرقتنى، وأمر الأرض فبلعتنى، ما ازددت لربي إلا شكرا لما أنعم عليّ من لسانى هذا، ولكن يا عبد الله إذ أتيتني، لي إليك حاجة، قد تراني على أي حالة أنا، أنا لست أقدر لنفسي على ضر ولا نفع، ولقد كان معي بني لي يتعاهدني في وقت صلاتي فيوضيني، وإذا جعت أطعمني، وإذا عطشت سقاني، ولقد فقدته منذ ثلاثة أيام فتحسسه لي رحمك الله، فقلت: والله ما مشي خلق في حاجة

خلق كان أعظم عند الله أجرا ممن يمشي في حاجة مثلك، فمضيت في طلب الغلام فما مضيت غير بعيد حتى صرت بين كئبان من الرمل، فإذا أنا بالغلام قد افترسه سبع وأكل لحمه فاسترجعت،.. فبينما أنا مقبل نحوه إذ خطر على قلبي ذكر أيوب النبي ﷺ، فلما أتيت سلمت عليه فرد علي السلام فقال: ألسنت بصاحبي؟ قلت: بلى قال: ما فعلت في حاجتي؟ فقلت: أنت أكرم على الله أم أيوب النبي؟ قال: بل أيوب النبي. قلت: هل علمت ما صنع به ربه أليس قد ابتلاه بماله وآله وولده؟ قال: بلى. قلت: فكيف وجده؟ قال: وجده صابرا شاكرا حامدا. قلت: لم يرض منه ذلك حتى أوحش من أقربائه وأحبائه؟ قال: نعم. قلت: فكيف وجده ربه؟ قال: وجده صابرا شاكرا حامدا. قلت: فلم يرض منه بذلك حتى صيره عرضا لمار الطريق هل علمت؟ قال: نعم قلت: فكيف وجده ربه؟ قال: صابرا شاكرا حامدا، أوجز رحمك الله. قلت له: إن الغلام الذي أرسلتني في طلبه وجدته بين كئبان الرمل وقد افترسه سبع فأكل لحمه فأعظم الله لك الأجر وألهمك الصبر، فقال المبتلى: الحمد لله الذي لم يخلق من ذريتي خلقا يعصيه فيعذبه بالنار، ثم استرجع وشهق شهقة فمات فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون عظمت مصيبتني رجل مثل هذا، إن تركته أكلته السباع، وإن قعدت لم أقدر على ضر ولا نفع، فَسَجَّيْتُه - أي غطيته - بشملة كانت عليه وقعدت عند رأسه باكيا، فبينما أنا قاعد إذ تهجم عليّ - أي دخل عليّ - أربعة رجال، فقالوا: يا عبد الله ما حالك، وما قصتك؟ فقصصت عليهم قصتي وقصته فقالوا لي: اكشف لنا عن وجهه فعسى أن نعرفه فكشفت عن وجهه فانكب القوم عليه يقبلون عينيه مرة ويديه أخرى ويقولون: عين طال ما غضت عن محارم الله، وجسم طال ما كُنْتَ ساجدا والناس نيام فقلت: من هذا يرحمكم الله؟ فقالوا: هذا أبو قلابة الجرمي صاحب ابن عباس لقد كان شديد الحب لله وللنبي ﷺ، فغسلناه وكفنناه بأثواب كانت معنا، واصلينا عليه ودفناه، فانصرف القوم وانصرفت إلى رباطي، فلما أن جن عليّ الليل وضعت رأسي فرأيت فيما يرى النائم في روضة من رياض الجنة، وعليه حلتان من حل الجنة وهو يتلو الوحي {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٤]، فقلت: ألسنت بصاحبي؟ قال: بلى.

قلت: أتى لك هذا؟ قال: إن لله درجات لا تتال إلا بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء مع خشية الله ﷻ في السر والعلانية

معاشر الإخوة، الابتلاء للمؤمن كالنار للذهب، يزيد في نقائه وصلابته، كما قال تعالى: {وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ} [البقرة: ١٢٤].

وقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتسلح بسلاح الصبر والصلاة عند نزول البلايا والمصائب قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} [البقرة: ١٥٣].

وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ ثُمَّ الْأَمْثُلُ فَالْأَمْثُلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ ضَلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ حَطِيئَةٍ» ^(١).

ولقد أمرنا الله ﷻ بأربعة أمور عند لقاء العدو وذلك بالصبر والمصابرة والرباط والتقوى، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} [آل عمران: ٢٠٠].

والصبر عند نزول البلاء يكون برضا القلب بقضاء الله، وحبس اللسان عما يغضب الله وتقبيد الجوارح عما يغضب الله، وَعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللَّهُ [إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ] اللَّهُمَّ أَجْرِي فِي مُصِيبَتِي وَأَخْلَفَ لِي خَيْرًا مِنْهَا إِلَّا أَخْلَفَ اللَّهُ لَهُ خَيْرًا» ^(٢).

أخي الحبيب، الصبر على أذى الناس له منزلة عظيمة عند الله ﷻ خصوصاً عند الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله، قال تعالى:

فَعَنْ سَهْلِ بْنِ مَعَاذٍ عَنْ أَبِيهِ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَظَمَ

(١) (صحيح) أخرجه (حم خ ن هـ) وصححه الألباني في ص. ج ٩٩٢

(٢) (صحيح) أخرجه (م) ٩١٨.

عَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ دَعَاهُ اللهُ ۞ عَلَى رُؤُوسِ السِّمَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُخَيَّرَهُ اللهُ مِنَ الْخُورِ الْعَيْنِ مَا شَاءَ» (١).

وهناك أسباب معينة على الصبر كثيرة نذكر منها:

١ - اليقين بحسن الجزاء، قال تعالى: {إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠)} [الزمر: ١٠].

٢ - التأسي بأهل المصائب، قال تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)} [العنكبوت: ٣].

٣ - اليقين بالفرج، قال تعالى: {فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)} [الشرح: ٦].

٤ - اليقين بأن الجزع لا يرد المصيبة، قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ (٢٢)} [الحديد: ٢٢].

٥ - اليقين بأن الله يحب الصابرين، قال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)} [الأنفال: ٤٦].

٦ - اليقين بأن الصبر على البلاء يرفع الدرجات، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥)} [البقرة: ١٥٥].

٧ - اليقين بأن الله تعالى يتلى العباد حتى يختبر أقوالنا وأفعالنا، فيظهر الصادق من الكاذب، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١)} [محمد: ٣١].

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

الدرس الثامن والخمسون:

قراءة القرآن بخشوع وتدبر

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة خشوع أبي بكر الصديق عند قراءته للقرآن أوردها ابن هشام في (السيرة النبوية) قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي الزَّهْرِيُّ، عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزَّيْبِرِ عَنْ عَائِشَةَ ~~هِيَ~~ قَالَتْ: فَقَالَ ابْنُ الدَّغْنَةِ: أَيْنَ يَا أَبَا بَكْرٍ؟ قَالَ: أَخْرَجَنِي قَوْمِي وَأَذَوْنِي، وَضَيَّفُوا عَلَيَّ قَالَ: وَلِمَ؟ فَوَاللَّهِ إِنَّكَ لَتَزِينُ الْعَشِيرَةَ وَتُعِينُ عَلَى النَّوَائِبِ، وَتَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ، وَتُكْسِبُ الْمَعْدُومَ، أَرْجِعْ فَأَنْتَ فِي جَوَارِي. فَرَجَعَ مَعَهُ حَتَّى إِذَا دَخَلَ مَكَّةَ، قَامَ ابْنُ الدَّغْنَةِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنِّي قَدْ أَجْرَتُ ابْنَ أَبِي فُحَّافَةَ، فَلَا يَعْضُنُ لَهُ أَحَدٌ إِلَّا بِخَيْرٍ. قَالَتْ: فَكَفُّوا عَنْهُ قَالَتْ: وَكَانَ لِأَبِي بَكْرٍ مَسْجِدٌ عِنْدَ بَابِ دَارِهِ فِي بَنِي جُمَحٍ، فَكَانَ يُصَلِّي فِيهِ وَكَانَ رَجُلًا رَقِيقًا، إِذَا قَرَأَ الْقُرْآنَ اسْتَبَكَّى. قَالَتْ: فَبَقِيَ عَلَيْهِ الصَّبِيَانُ وَالْعَبِيدُ وَالنِّسَاءُ يَعْجَبُونَ لِمَا يَرَوْنَ مِنْ هَيْئَتِهِ. قَالَتْ: فَمَشَى رَجُلًا مِنْ قُرَيْشٍ إِلَى ابْنِ الدَّغْنَةِ فَقَالُوا لَهُ: يَا بَنُ الدَّغْنَةِ إِنَّكَ لَمْ تُجِرْ هَذَا الرَّجُلَ لِيُؤَدِّبَنَا إِنَّهُ رَجُلٌ إِذَا صَلَّى وَقَرَأَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ يَرِقُّ وَيَبْكِي، وَكَانَتْ لَهُ هَيْئَةٌ وَنَحْوُ فَنَحْنُ نَتَخَوَّفُ عَلَى صَبِيَانِنَا وَنِسَائِنَا وَضَعَفَتِنَا أَنْ يَفْتِنَهُمْ فَأْتِهِ، فَمُرَهُ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتَهُ فَلْيَصْنَعْ فِيهِ مَا شَاءَ. قَالَتْ: فَمَشَى ابْنُ الدَّغْنَةِ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا بَكْرٍ إِنِّي لَمْ أَجْرِكَ لِتُوذِي قَوْمِكَ، إِنَّهُمْ قَدْ كَرِهُوا مَكَانَكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ وَتَأَذُّوا بِذَلِكَ مِنْكَ، فَادْخُلْ بَيْتَكَ، فَاصْنَعْ فِيهِ مَا أَحْبَبْتَ قَالَ: أَوْ أَرُدَّ عَلَيْكَ جَوَارِكَ وَأَرْضِي بِجَوَارِ اللَّهِ؟ قَالَ: فَارْدُدْ عَلَيَّ جَوَارِي، قَالَ: قَدْ رَدَدْتُهُ عَلَيْكَ قَالَتْ: فَقَامَ ابْنُ الدَّغْنَةِ فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، إِنَّ ابْنَ أَبِي فُحَّافَةَ قَدْ رَدَّ عَلَيَّ جَوَارِي فَشَانُكُمْ بِصَاحِبِكُمْ (٣١).

فيا أيها الأخ الحبيب! ويا أيها المسلمة! إن هذا القرآن رحمة، وهو

هدى ونور وشفاء لما في الصدور كما وصفه الله سبحانه وتعالى، كما أن قراءة القرآن بتدبر وتمعن من أعظم أسباب السعادة، ومن أعظم أسباب انشراح الصدر في الدنيا والآخرة.

فاحرص على قراءة القرآن بتدبر وخشوع، فقد كان السلف رحمهم الله يتأثرون بكلام الله ﷻ، قال الله تعالى: {وَنَزَّلْنَا مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا} [الإسراء: ٨٢].

معاشر الإخوة، من رأيته يكثر من قراءة القرآن ويتدبر القرآن ودائماً لا يمضي يوم إلا وهو يقرأ القرآن، فاعلم أنه قريب من الله، وأنه أصبح من الوصول قاب قوسين أو أدنى، ولذلك لا يشترط في المسلم والولي والمتقي أن يحفظ القرآن كله، فإن بعض الناس يحفظ سوراً قليلة لكنه رباني، وولي متصل بالله ﷻ، وبعضهم يحفظ الكثير وهو فاسق - نعوذ بالله من ذلك - فالمقصود: الحفظ فضيلة مع العمل وتربية النفس على هذا القرآن، ومن لم يحفظ الكثير فيردد ما يحفظ، ولو لم يردد في اليوم إلا: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤)} لكفى، فإنها من أعظم السور، ويتدبر معانيها.

فلقد كان ابن تيمية يتدبر سورة الفاتحة الساعات الطويلة حتى يرتفع ويتعالى النهار، وهذا هو العجب العجيب، أن تتصل دائماً بالله في بيتك، في سوقك، في مكتبك، في أي مكان تعيش فيه (٥٧).

وَعَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: أَمَا إِنَّ نَبِيَّكُمْ ﷺ قَدْ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ الْآخَرِينَ» (١).

ولقد أمر الله بتلاوة القرآن والعمل به وتدبره فقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُؤْتِيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠)} [فاطر: ٢٩: ٣٠].

وأخبر النبي ﷺ بما لقارئ القرآن من الحسنات، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِّنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ

حَسَنَةٌ، وَالْحُسْنَةُ بَعْشَرُ أَمْثَالِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَا مَ حَرْفٌ
وَمِيمٌ حَرْفٌ» (١).

وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ
الْبَرَّةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ» (٢).
ويوم القيامة تتجلى هذه الفضائل لقارئ القرآن، فيشفع لقارئه ويعلو
به في مراتب الجنة على قدر قراءته.

وَعَنْ أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «اقْرَأُوا
الْقُرْآنَ، فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ» (٣).

وَعَنْ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنه، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ
وَارْتَقِ وَرَتَّلْ كَمَا كُنْتَ تُرْتَلُّ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرَأُ بِهَا» (٤).
وإن من عجيب حال الكثيرين منا، تقصيرهم في تلاوة كتاب ربهم،
وتدبره والعمل به، مع علمهم بفضله وأجره.

قال أمير المؤمنين عُمَانُ رضي الله عنه : لو طهرت قلوبنا لما شبعنا من كلام
الله ﷻ، وعلى هذا ينبغي للمسلم ملاحظة هذه الأمور:

أولاً: قراءة القرآن بتدبر وتمعن، قال تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ
لِيَتَدَبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ} [ص: ٢٩].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : " لا تنتروه كنثر الرمل، ولا تهدؤوه كهذ
الشعر، قفوا عند عجائبه، وحرخوا به القلوب، ولا يكن هم أحدكم آخر
السورة".

ثانياً: مراجعة الحفظ، عَنْ أَبِي مُوسَى، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «تَعَاهَدُوا
هَذَا الْقُرْآنَ فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ هُوَ أَشَدُّ تَقَلُّبًا مِنَ الْإِبِلِ فِي عُقْلِهَا» (٥).

ثالثاً: الخشوع عند تلاوة القرآن: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ

(١) (صحيح) أخرجه (تخ ت ك) وصححه الألباني في ص. ج ٦٤٦٩.

(٢) (صحيح) أخرجه (خ) ٤٦٥٣، و(م) ٧٩٨.

(٣) (صحيح) أخرجه (م) ٨٠٤.

(٤) (حسن) أخرجه (حم ت د ن) وحسنه الألباني في مش ٢١٣٤.

(٥) (صحيح) أخرجه (م) ٧٩١.

لِي النَّبِيِّ ﷺ : أَقْرَأَ عَلَيَّ، قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ: أَقْرَأُ عَلَيْكَ وَعَلَيْكَ أَنْزَلَ؟ قَالَ: «فَإِنِّي أَحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي»، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ سُورَةَ النَّسَاءِ حَتَّى بَلَغْتُ {فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا} [النساء: ٤١]، قَالَ: «أَمْسِكْ» فَإِذَا عَيْنَاهُ تَذَرِفَانِ (١).

رابعاً: عدم هجر القرآن، قال تعالى: {وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا} [الفرقان: ٣٠]، والهجر يشمل هجر التلاوة، والتدبر والعمل، والتحاكم إليه؛ كما قال ابن القيم - رحمه الله تعالى -، فلا بد من العناية بكلام الله - ﷻ - حفظاً، وتلاوةً، وعملاً، حتى يكون المسلم من أهل القرآن، الذين هم أهل الله، وخاصته.

أخي المشتكي من قسوة القلب، وقحط العين التي لاتدمع حال قراءة القرآن، أذكرك بقول ربنا سبحانه: {أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ} [الحديد: ١٦].

ولعل التفاعل مع القراءة من أسباب التدبر، وحضور القلب حال القراءة، ومن صور ذلك: السؤال والتعود والتسبيح في مواضعها، ومن صور التفاعل: أن تتصور توجه الخطاب لك مباشرة، وأنت المعني بالكلام، ومن صور التفاعل: تكرار الآية، وإمرارها على القلب، كما كرر النبي ﷺ قوله تعالى: {إِنْ تُعَدِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة: ١١٨].

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٤٣٠٦، و(م) ٨٠٠ واللفظ للبخاري.

الدرس التاسع والخمسون،

الخشوع في الصلاة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

أحبتي في الله، نحن على موعد مع موقف عظيم لصحابي جليل وهو عباد ابن بشر، أخرج الإمام أحمد في مسنده - عن جابر بن عبد الله رضي عنه قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةِ ذَاتِ الرِّقَاعِ فَأُصِيبَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَلَمَّا انصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَافِلًا وَجَاءَ زَوْجُهَا وَكَانَ غَائِبًا فَخَلَفَ أَنْ لَا يَنْتَهِيَ حَتَّى يُهْرِيقَ دَمًا فِي أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَخَرَجَ يَتَّبِعُ أَثَرَ النَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ مَنزِلًا فَقَالَ: «مَنْ رَجُلٌ يَكْلُونَا - أَي يَحْفَظُنَا وَيَحْرُسُنَا - لَيْكُنَّا هَذِهِ» فَأَنْتَدَبَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ - عمار بن ياسر - مِنَ الْأَنْصَارِ - وعباد ابن بشر - فَقَالَ: نَحْنُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «فَكُونُوا بِمِ الشَّعْبِ» قَالَ: وَكَانُوا نَزَلُوا إِلَى شُعْبٍ مِنَ الْوَادِي، فَلَمَّا خَرَجَ الرَّجُلَانِ إِلَى قَوْمِ الشَّعْبِ قَالَ: الْأَنْصَارِيُّ لِلْمُهَاجِرِيِّ: أَيُّ اللَّيْلِ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ أَكْفِيكَهُ أَوْلَهُ أَوْ آخِرُهُ قَالَ أَكْفِيَنِي أَوْلَهُ، فَاضْطَجَعَ الْمُهَاجِرِيُّ - عمار بن ياسر - فَنَامَ وَقَامَ الْأَنْصَارِيُّ - عباد بن بشر - يُصَلِّي، وَآتَى الرَّجُلُ فَلَمَّا رَأَى شَخْصَ الرَّجُلِ عَرَفَ أَنَّهُ رَبِيبُهُ - أَي حِرَاسَةُ - الْقَوْمِ فَرَمَاهُ بِسَهْمٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ وَتَبَّتْ قَائِمًا، ثُمَّ رَمَاهُ بِسَهْمٍ آخَرَ فَوَضَعَهُ فِيهِ فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ وَتَبَّتْ قَائِمًا، ثُمَّ عَادَ لَهُ بِثَالِثٍ فَوَضَعَهُ فِيهِ فَنَزَعَهُ فَوَضَعَهُ، ثُمَّ رَكَعَ وَسَجَدَ ثُمَّ أَهَبَّ صَاحِبَهُ فَقَالَ: اجْلِسْ فَقَدْ أُوتِيَتْ قَوْثِبٌ فَلَمَّا رَأَاهُمَا الرَّجُلُ عَرَفَ أَنْ قَدْ نَذَرُوا بِهِ فَهَرَبَ، فَلَمَّا رَأَى الْمُهَاجِرِيُّ مَا بِالْأَنْصَارِيِّ مِنَ الدَّمَاءِ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ أَلَا أَهْبَيْتَنِي - أَي أَيْقَظْتَنِي - قَالَ: كُنْتُ فِي سُورَةِ أَقْرُوهَا فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطِعَهَا حَتَّى أَنْفِذَهَا - أَي أَنْتَهِيَ مِنْ قِرَائَتِهَا - فَلَمَّا تَابَعَ الرَّمِي رَكَعْتُ فَأَرَيْتُكَ - أَي أَيْقَظْتِكَ - وَإِيْمُ اللَّهِ لَوْلَا أَنْ أَضِيعَ نَعْرًا

أَمْرِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِهِ لَقَطَعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا أَوْ أَنْفَذَهَا (١).

هذا هو حال الصحابة الكرام، ولقد أثنى الله ﷻ عن هؤلاء الذين هم في صلاتهم خاشعون قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢)} [المؤمنون: ١، ٢]، فالصلاة جسد والخشوع روحها، فإذا توفر الجسد والروح بقيت حياة الصلاة، أما إذا وجد الجسد وخرجت الروح فلا قيمة للجسد.

بعض الناس لا تنتهي أشغاله، دائماً مشغول طوال اليوم، فإذا دخل في الصلاة بدأ يفكر في عمارته وسيارته ومشاكله، لماذا؟ لأنها فرصة ليس عنده وقت يفكر، فيأتيه الشيطان ليقتذف في قلبه الوسوس والأفكار والخطرات حتى يخرج منها، بدرجة أنك لو أجريت اختباراً في أي مسجد للمصلين بعد أي صلاة من صلاة الجهر وقلت لهم: ماذا قرأ الإمام في الصلاة؟ فإنه لا ينجح إلا القليل.

معاشر الإخوة، كان السلف رحمهم الله يولون اهتماماً كبيراً لهذه الصلاة وللخشوع فيها، قال ابن القيم رحمه الله تعالى في (الوابل الصيب): والناس في الصلاة على مراتب خمسة: أحدها: مرتبة الظالم لنفسه المفرط، وهو الذي انتقص من وضوئها ومواقبتها وحدودها وأركانها، وهذا معاقب.

الثاني: من يحافظ على مواقبتها وحدودها وأركانها الظاهرة ووضوئها، لكنه ذهب مع الوسوس والأفكار، وهذا محاسب.

الثالث: من حافظ على حدودها وأركانها وجاهد نفسه في دفع الوسوس والأفكار، فهو مشغول بمجاهدة عدوه لئلا يسرق صلاته، فهو في صلاة وجهاد، وهذا مكفّر عنه.

الرابع: من إذا قام إلى الصلاة أكمل حقوقها وأركانها وحدودها، وكان

همه كله مصروف إلى إقامتها كما ينبغي وإكمالها وإتمامها، وهذا

(١) (حسن) أخرجه (حم) ١٤٧٤٥ وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

مثاب.

الخامس: من إذا قام إلى الصلاة قام أخذ قلبه ووضع بين يدي ربه ﷻ، وهذا في صلاته مشغول بربه ﷻ قرير العين به، وهذا مقرب من ربه (٦٦).

الإخوة الفضلاء، أسوأ الناس سرقة الذي يسرق في صلاته، فَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَسْوَأُ النَّاسِ سَرِقَةً الَّذِي يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ؟ قَالَ: «لَا يَتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا أَوْ قَالَ: لَا يُقِيمُ صَلَاتَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ» (١).

وأول ما يرفع من هذه الأمة الخشوع في الصلاة، فَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، قَالَ: «أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ» (٢).

وَعَنْ عِبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «خَمْسُ صَلَوَاتٍ افْتَرَضَهُنَّ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ أَحْسَنَ وَضُوءَهُنَّ وَصَلَّاهُنَّ لَوَقْتِهِنَّ وَأَتَمَّ رُكُوعَهُنَّ وَخُشُوعَهُنَّ كَانَ لَهُ عَلَى اللَّهِ عَهْدٌ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ فَلَيْسَ لَهُ عَلَى اللَّهِ عَهْدٌ إِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ وَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ» (٣).

والرجلان يكونان في الصف معا في الصلاة وهناك فرق في أجرهما، فَعَنْ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَنْصَرِفُ وَمَا كُتِبَ لَهُ إِلَّا عَشْرُ صَلَاتِهِ تُسَعُّهَا ثَمَنُهَا سُبْعُهَا سُدُسُهَا خَمْسُهَا رُبْعُهَا ثُلُثُهَا نِصْفُهَا» (٤).

أخي الحبيب، من الأسباب التي تساعدك على الخشوع في الصلاة:

- ١ - أن تترك ما في يدك بمجرد سماعك للأذان وتتوجه للمسجد.
- ٢ - أن تحافظ على السنن الرواتب.
- ٣ - أن تحاول أن تصلي صلاة مودع وتتدبر ما تقوله في الصلاة، فإذا حاول الشيطان أن يأخذك بعيدا فاستغفر الله وتعوذ من الشيطان واتفل

(١) (صحيح) أخرجه (حم ك) وصححه الألباني في ص. ج ٩٨٦.

(٢) (صحيح) أخرجه (طب) وصححه الألباني في ص. ج ٢٥٧٦.

(٣) (صحيح) أخرجه (د هق) وصححه الألباني في ص. ج ٣٢٤٢.

(٤) (حسن) أخرجه (حم د حب) وحسنه الألباني في ص. ج ١٦٢٦.

عن يسارك إن كنت تصلى بمفردك.

٤ - أن تستحضر عظمة الله تعالى عند صلاتك، ولا تلتفت يمينا ويسارا ولا تنتظر إلى السماء بل اجعل بصرك في مصلاك وتدبر في الآيات التي تقرأها أو التي تسمعها، قال تعالى: {وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} [الأعراف: ٢٠٤].

ولقد اختلف أهل العلم في حكم قراءة الفاتحة للمأموم على ثلاثة أقوال: قول للإمام الشافعي وهو: أن من ترك قراءة الفاتحة إماماً كان أو مأموماً فإن صلاته باطلة.

والقول الثاني للإمام أحمد ومالك وهو: أن الفاتحة تجب على المأموم في القراءة السرية، وتسقط عنه في القراءة الجهرية؛ لأن قراءة الإمام قراءة له، وهذا قول الإمام أحمد ورجحه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

القول الثالث: وهو من الأقوال التي لا دليل عليها، وهو قول الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، قال: إن المأموم لا يقرأ؛ لا في السرية ولا الجهرية (٦٦).

٥ - وأد الأركان باطمئنان وخشوع ولا تسابق الإمام في الركوع ولا في السجود في صلوات الجماعة.

٦ - واختم صلاتك بتأني ثم صلّ ما بدا لك من السنن والأفضل أن تحافظ على السنن في المنزل فهذه وصية رسول الله ﷺ، فَعَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلَاةُ الْمَرْءِ فِي بَيْتِهِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاتِهِ فِي مَسْجِدِي هَذَا إِلَّا الْمَكْتُوبَةَ» (١) (٦٤).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

(١) (صحيح) أخرجه (د ت) وصححه الألباني في مش ١٣٠٠.

الدرس الستون:

التصديق بموعدوات الله ورسوله للمؤمنين في الدنيا والآخرة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

أحبتي في الله، نحن على موعد مع موعدوات رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم ؓ. أخرج البخاري في صحيحه بسنده عن عدي بن حاتم ؓ قال: بَيْنَا أَنَا عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ أَتَاهُ رَجُلٌ فَشَكَا إِلَيْهِ الْفَاقَةَ - أَي الْفَقْرَ - ، ثُمَّ أَتَاهُ آخَرٌ فَشَكَا إِلَيْهِ قَطَعَ السَّبِيلَ فَقَالَ: «يَا عَدِي هَلْ رَأَيْتَ الْحَيْرَةَ - أَي بَلَدَ مَجَاوِرَةَ لِلْكُوفَةِ -؟» قُلْتُ: لَمْ أَرَهَا وَقَدْ أُنبِئْتُ عَنْهَا قَالَ: «فَإِنْ طَأَلْتَ بِكَ حَيَاةَ لَتْرَيْنَ الطَّعِينَةَ - أَي الْمَرَأَةَ الْمَسَافِرَةَ بِمَفْرَدِهَا - تَرْتَجِلُ مِنَ الْحَيْرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ» قُلْتُ فِيمَا بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي: فَأَيْنَ دُعَاؤُ - أَي قِطَاعِ الطَّرِيقِ - طَيِّئِ الَّذِينَ قَدْ سَعَرُوا الْبِلَادَ - أَي أَشْعَلُوا فِيهَا نَارَ الْفِتْنَةِ -!! «وَلَيْنَ طَأَلْتَ بِكَ حَيَاةَ لَتْفَتْحَنَ كُنُوزِ كِسْرَى» قُلْتُ: كِسْرَى بِنِ هُرْمُرْزٍ؟ قَالَ: «كِسْرَى بِنِ هُرْمُرْزٍ، وَلَيْنَ طَأَلْتَ بِكَ حَيَاةَ لَتْرَيْنَ الرَّجُلِ يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ يَطْلُبُ مَنْ يَقْبَلُهُ مِنْهُ فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَقْبَلُهُ مِنْهُ، وَلَيَلْقَيْنَ اللَّهَ أَحَدَكُمْ يَوْمَ يَلْقَاهُ وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجَمَانٌ يُتْرَجَمُ لَهُ فَلَيَقُولَنَّ لَهُ: أَلَمْ أَبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا فَيَبْلُغَكَ؟ فَيَقُولَنَّ: بَلَى فَيَقُولَنَّ: أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَأَفْضَلَ عَلَيْكَ؟ فَيَقُولَنَّ: بَلَى فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ، وَيَنْظُرُ عَنْ يَسَارِهِ فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ» قَالَ عَدِي: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «اتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقَّةِ تَمْرَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ شِقَّةَ تَمْرَةٍ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ» قَالَ عَدِي: فَرَأَيْتَ الطَّعِينَةَ تَرْتَجِلُ مِنَ الْحَيْرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَعْبَةِ لَا تَخَافُ إِلَّا اللَّهَ، وَكُنْتُ فِيمَنْ افْتَتَحَ كُنُوزَ كِسْرَى بِنِ هُرْمُرْزٍ، وَلَيْنَ طَأَلْتَ بِكُمْ حَيَاةَ لَتْرُونَ مَا قَالَ النَّبِيُّ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ يُخْرِجُ مِلءَ كَفِّهِ (١).

معاشر الإخوة، هذا الإله العظيم يبشركم في كتابه فيقول: {وَكَانَ حَقًّا

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٣٤٠٠.

عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ} [الروم: ٤٧]، هكذا بهذه الصياغة العجيبة المعجزة!!
والله لو تنزل من آيات البشرية غيرها لكفت!!

هذا الإله القادر المقتدر يتعهد بنصر المؤمنين، ويجعله حقاً عليه سبحانه، ليس هذا نصراً في الآخرة فقط بدخول الجنة، ولكنه نصر في الدنيا كذلك، قال سبحانه: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ} [غافر: ٥١]، هكذا الوعد: نصر في الدارين، في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، إن كان هناك مؤمنون، فلا بد لهم من نصر، هكذا وعد، وهو سبحانه لا يخلف الميعاد، واستمعوا إلى قوله تعالى {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)} [النور: ٥٥].

فاذا توفر الإيمان والعمل الصالح والعبادة الخالصة دون الشرك به سبحانه، كان الاستخلاف في الأرض، وكان التمكين للدين وكان الأمن بعد الخوف.

أيها المسلمون المعتزون برسولهم ﷺ : ألم تسمعوا إلى قول رسولكم وحببيكم محمد ﷺ في الحديث الذي رواه ثوبان ؓ قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «إِنَّ اللَّهَ زَوْي لِي الْأَرْضِ، أَوْ قَالَ: إِنَّ رَبِّي زَوْي لِي الْأَرْضِ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ مَلِكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زَوْي لِي مِنْهَا وَأَعْطِيَتْ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ - أي كنوز الروم - وَالْأَبْيَضَ - أي كنوز فارس -..»^(١) نعم يا إخواني، سيبليغ ملك المسلمين مشارق الأرض ومغاربها، بكل ما تحمله الكلمة من معان، ألم تسمعوا إلي قول مرشدكم وقوتكم محمد ﷺ وهو يقول في الحديث الذي رواه تميم الداري ؓ قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «يَسْبُلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ - أي الإسلام - مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ - أي كل الأرض -، وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدَرٍ - أي بيوت المدن - وَلَا وَبَرٍ - أي بيوت البادية - إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ

(١) (صحيح) أخرجه (حم م د ت هـ) وصححه الألباني في ص. ج ١٧٧٣.

ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، بل اسمع وتأمل إلى ما رواه الإمام أحمد وصححه الألباني عن أبي قبيل قال: كُنَّا عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو ابْنِ الْعَاصِ رضي الله عنه وَسئِلَ: أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوْلَى الْفُسْطَاطِيْنِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةٌ؟ فَدَعَا عَبْدُ اللَّهِ بِصُنْدُوقٍ لَهُ حَلَقٌ قَالَ: فَأَخْرَجَ مِنْهُ كِتَابًا، قَالَ: فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَكْتُبُ إِذْ سئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الْمَدِينَتَيْنِ تُفْتَحُ أَوْلَى، فَسُطَاطِيْنِيَّةُ أَوْ رُومِيَّةُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَدِيْنَةُ هِرَقْلٍ تُفْتَحُ أَوْلَى يَعْنِي فُسْطَاطِيْنِيَّةُ»^(٢).

والقسطنطينية هي عاصمة الدولة الرومانية الشرقية آنذاك وهي إستانبول الآن، ورومية هي روما، وكانت عاصمة الدولة الرومانية الغربية، وكانتا معاقل النصرانية في العالم، ويفهم من الحديث أن الصحابة كانوا يعلمون منه ﷺ أن هاتين المدينتين ستفتحان، لكن يسألون أي المدينتين تفتح أولاً فيبشر رسول الله بفتح القسطنطينية أولاً، وقد كان وتحققت البشارة النبوية بعد أكثر من ثمانمائة سنة!!.. وبالضبط في ٢٠ جمادى الأولى سنة ٨٥٧ هجرية، على يد الفتى العثماني المجاهد محمد الفاتح رحمه الله، وستحدث البشارة الثانية لا محالة، وسيدخل الإسلام روما عاصمة إيطاليا إن شاء الله تعالى. ولي على هذا الحديث تعليقان:

التعليق الأول: هو أن بعض العلماء يعتقدون أن فتح رومية (أو روما) سيكون بالدعوة إلى الإسلام وبإنشاء المراكز الإسلامية والمساجد فقط، ويستبعدون الفتح عن طريق الجهاد، والحق أن الحديث لم يشر إلى ذلك، بل أرى أن قصر تفسير فتح رومية على الدعوة دون الجهاد هو نوع من الهزيمة النفسية، فالذي يقول ذلك لا يتخيل أنه بالإمكان أن يحرك المسلمون جيشاً لإيطاليا، فلتنك الدعوة إذن هي التفسير للحديث!!.. لكن على العكس من ذلك.. فإن سياق الحديث يوحى بأن الفتح سيكون جهاداً، ولذلك جمعت مع القسطنطينية في حديث واحد، ولتعلمن نبأه بعد حين!!..

(١) (صحيح) أخرجه (حب) وصححه الألباني في س.ص ٣.

(٢) (صحيح) أخرجه (حم دارمي ش) وصححه الألباني في س.ص ٤.

التعليق الثاني: هو أن محمد الفاتح رحمه الله كان يعد العدة، ويجهز الجيوش فعلاً لفتح رومية وذلك لاستكمال تحقيق البشارة النبوية، لكنه لم يوفق لذلك، والحق قد تعجبون من قلبي هذا: أنني قد سعدت بل وحمدت الله على أنه لم يتم له فتح رومية!!.. لماذا؟! ذلك حتى تبقى بشارة رسول الله ﷺ تبعث الأمل في نفوسنا، وحتى يبقى لنا شيء نفتحه (٩).

بل وهناك الكثير من المبشرات القرآنية والمبشرات النبوية لا يتسع المقام هنا لذكرها، ومن أراد التوسع في ذلك فليراجع كتاب (هيا نؤمن ساعة قبل قيام الساعة لنفس المؤلف)، ومن البشارات النبوية البشارة بقتال أعداء الإسلام وانتصار المسلمين عليهم، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ، حَتَّى يَخْتَبِيَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوْ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللَّهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ، إِلَّا الْغَرَقَدَ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»^(١).

فالاستعلاء اليهودي في الأرض لن يدوم، ووعد الله متحقق لا محالة؛ لأن الله لا يخلف وعده، والمعركة الفاصلة التي يبشر بها النبي ﷺ بين المسلمين واليهود واقعة بإذن الله، وسيعود اليهود إلى وضعهم الطبيعي الذي كتبه الله عليهم من الذلة والمسكنة وغضب من الله فقد توفرت فيهم أسباب الاندحار والهزيمة، وسينجز الله للأمة وعده يوم أن يتوفر فيها أسباب النصر، ولمزيد من المبشرات يمكن الرجوع لكتاب (هيا نؤمن ساعة قبل قيام الساعة).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

* * *

(١) (صحيح) أخرجه (م) ٢٩٢٢.

الدرس الحادي والستون،

الجهاد في سبيل الله

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضللّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

أحبتي في الله، نحن على موعد مع أنس بن النضر، هذا الصحابي الجليل، في غزوة أحد، فعن أنس رضي الله عنه قال: غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ رضي الله عنه عَنْ قِتَالِ بَدْرِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، غِيبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالِ قَاتِلَتِ الْمُشْرِكِينَ، لَيْنُ اللَّهِ أَشْهَدَنِي قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ لَيْرِيئَ اللَّهِ مَا أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمَ أُحُدٍ وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ، قَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْزِي أَسْحَابَهُ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلَاءِ يَعْزِي الْمُشْرِكِينَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: يَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الْجَنَّةُ وَرَبُّ النَّضْرِ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ نُونِ أُحُدٍ، قَالَ سَعْدٌ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَا بِهِ بَضْعًا وَثَمَانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيْفِ أَوْ طَعْنَةً بِرُمْحٍ أَوْ رَمِيَّةً بِسَهْمٍ وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ، وَقَدْ مَثَلَ بِهِ الْمُشْرِكُونَ فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إِلَّا أُخْتَهُ بِنَانِيهِ، قَالَ أَنَسٌ كُنَّا نَرَى أَوْ نَنْظُرُ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِيهِ وَفِي أَشْبَاهِهِ: {مَنْ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ} [الأحزاب: ٢٣] إلى آخرها (١).

والجهاد لا يكون من أجل الحمية أو من أجل الشجاعة إنما يكون من أجل أن تكون كلمة لا اله إلا الله هي العليا، وإذا سأل المؤمن الله الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه.

فعن أبي موسى رضي الله عنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَ: الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكَانَهُ فَمَنْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَاتَلَ لَتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» (٢).

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٢٦٥١ و (م) ١٩٠٣ واللفظ للبخاري.

(٢) (صحيح) أخرجه (خ) ٢٦٥٥ و (م) ١٩٠٤ واللفظ للبخاري.

وللجهاد في سبيل الله تعالى فضائل لا يتسع المقام لذكرها نكتفي بهذا الحديث الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحيهما، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا يَعْدِلُ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ»، قَالَ: فَأَعَادُوا عَلَيْهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا كُلُّ ذَلِكَ يَقُولُ: «لَا تَسْتَطِيعُونَهُ» وَقَالَ فِي الثَّلَاثَةِ: «مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بآيَاتِ اللَّهِ لَا يَفْتُرُ مِنْ صِيَامٍ، وَلَا صَلَاةٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى» (١).

يقول فضيلة الدكتور على الصلابي إن للجهاد في الإسلام عدة أهداف منها:

١ - إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض، فإقامة حكم الله في الأرض هدف من أهداف الجهاد، قال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا} [النساء: ١٠٥].

قال سيد قطب رحمه الله تعالى: جاهد الإسلام ليقوم هذا النظام الرفيع في الأرض ويقرره ويحميه، وكان من حقه أن يجاهد ليحطم النظم الطاغية التي تقوم على عبودية البشر للبشر والتي يدعي فيها العبيد مقام الألوهية ويزاولون فيها وظيفة الألوهية بغير حق، ولم يكن بد أن تقاومه تلك النظم الطاغية في الأرض كلها وتناصبه العدا، ولم يكن بد كذلك أن يسحقها الإسلام سحقا ليعلم نظامه الرفيع في الأرض، وما يزال هذا الجهاد لإقامة هذا النظام الرفيع مفروضا على المسلمين {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ} [البقرة: ١٩٣] فلا تكون هناك ألوهية للعبيد في الأرض ولا دينونة لغير الله.

٢ - دفع عدوان الكافرين، فمن أهداف الجهاد في الدولة الإسلامية دفع عدوان الكافرين، وهذا العدوان أنواع منها:

أ - أن يعتدي الكفار على فئة مؤمنة مستضعفة في أرض الكفار، لاسيما إذا لم تستطع أن تنتقل إلى بلاد تأمن فيها على دينها، فإن الواجب على الدولة الإسلامية أن تعد العدة لمجاهدة الكفار الذين اعتدوا على تلك

(١) (صحيح) أخرجه (خ) ٢٦٣٥ و (م) ١٨٧٨ واللفظ لمسلم.

الطائفة حتى يخلصوها من الظلم والاعتداء الواقع عليها.

قال تعالى: {فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا (٧٥)} [النساء: ٧٤، ٧٥].

قال القرطبي رحمه الله تعالى: في قوله تعالى {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} حَضَّ عَلَى الْجِهَادِ، وَيَتَضَمَّنُ تَخْلِيصَ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ أَيْدِي الْكُفْرَةِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَسُومُونَهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَفْتَنُونَهُمْ عَنِ الدِّينِ، فَأَوْجِبَ تَعَالَى الْجِهَادَ لِإِعْلَاءِ كَلِمَتِهِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ وَاسْتِنْقَاذِ الْمُؤْمِنِينَ الضَّعْفَاءِ مِنْ عِبَادِهِ، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ تَلْفُ النُّفُوسِ، وَتَخْلِيصُ الْأَسَارَى وَاجِبٌ عَلَى جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ إِمَّا بِالْقِتَالِ وَإِمَّا بِالْأَمْوَالِ وَذَلِكَ أَوْجِبَ لِكُونِهَا دُونَ النُّفُوسِ، إِذْ هِيَ أَهْوَنُ مِنْهَا.

وقال سيد قطب رحمه الله تعالى: جاهد الإسلام ليدفع عن المؤمنين الفتنة التي كانوا يسامونها وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم، وقرر ذلك المبدأ العظيم: والفتنة أشد من القتل، فاعتبر الاعتداء على العقيدة والإيذاء بسببها وفتنة أهلها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها، فالعقيدة أعظم قيمة في الحياة وفق هذا المبدأ العظيم، وإذا كان المؤمن مآذونا في القتال ليدفع عن حياته وعن ماله فهو من باب أولى مآذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه.

ب - أن يعتدي الكفار على ديار المسلمين، قال تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ - وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَقْتُلُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ - فَإِنْ أَنْتَهُوا فَلِإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ} [البقرة: ١٩٠ - ١٩٢].

لقد نص الفقهاء على أنه إذا اعتدى الكفار على ديار المسلمين يتعين

الجهاد للدفاع عن الديار، لأن العدو إذا احتلها سام المسلمين عذابا ونفذ فيها أحكام الكفر، فتصبح دار كفر بعد أن كانت دار إسلام.

ج - الوقوف ضد الدعوة إلى الله ومنعهم من تبليغ دعوة الله، فالمسلمون مفروض عليهم من قبل المولى عز وجل أن يبلغوا رسالات الله للناس كافة، كما قال تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨].
وأعداء الله يصدون أوليائه عن تبليغ عباده دعوته ولا يتركون لهم سبيلا إلى الناس، كما لا يأذنون للدعاة أن يسمعو الدعوة إلى الله للناس، ويضعون العراقيل، والحواجز بين الدعوة ودعاتها والناس، ولذلك أوجب الله عز وجل على عباده المؤمنين قتال كل من يصد عن سبيل الله تعالى.

قال تعالى: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالُهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيَّ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالُهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثَخْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنَّ يُضَلَّ أَعْمَالُهُمْ (٤)} [محمد: ١ - ٤].

قال سيد قطب رحمه الله: فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية وليقيم مكانها نظاما عادلا يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان، وما يزال هذا الهدف قائما وما يزال الجهاد مفروضا على المسلمين ليلبغوه وإن كانوا مسلمين، هذه بعض أهداف الجهاد التي تتحقق عند إقامة فريضة الجهاد (٤٥).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

الدرس الثاني والستون:

محاسبة النفس

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضللّ فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أما بعد..

أحبتي في الله، نحن على موعد مع قصة أخرجها الإمام مسلم في صحيحه عن محاسبة حظلة ﷺ لنفسه، فَعَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسِيدِيِّ ﷺ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ قُلْتُ: نَافِقٌ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: نَافِقٌ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَمَا ذَاكَ؟» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ، حَتَّى كَأَنَّا رَأَيْ عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنْ لَوْ تَدْرُمُونَ عَلَيَّ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحْتُمْ الْمَلَائِكَةَ عَلَيَّ فَرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ»^(١).

وهذا مصداقا لقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} [الحشر ١٧].

أخي الحبيب، هل خلوت بنفسك يوماً فحاسبته عما بدر منها من الأقوال والأفعال؟ وهل حاولت يوماً أن تعد سيناتك كما تعد حسناتك؟ بل هل تأملت يوماً طاعاتك التي تفتخر بذكرها؟! فإن وجدت أن كثيراً منها مشوباً بالرياء والسمعة وحظوظ النفس فكيف تصبر على هذه الحال،

(١) (صحيح) أخرجه (م) ٢٧٥٠.

وطريقك محفوف بالمكاراة والأخطار؟! وكيف القدوم على الله وأنت محمل بالأثقال والأوزار؟

إنَّ محاسبة النفس تحتاج لمراقبة دائمة للنفس الإنسانية، قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ} [العنكبوت: ٦٩].
وَعَنْ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ» (١).

ولقد عرف سلفنا الصالح أهمية هذه المنزلة فحققوها في أنفسهم وحشُّوا غيرهم عليها، فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول مبيناً أهمية هذا الأسلوب: "حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا فإنه أهون في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتزينوا للعرض الأكبر، يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية".

ويعتبر ميمون بن مهران المحاسبة ميزانا للتقوى فيقول: "لا يكون الرجل تقياً حتى يكون لنفسه أشد محاسبة من الشريك لشريكه" (١٤).
ومحاسبة النفس تكون قبل العمل بأن يقف العبد عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه. قال الحسن البصري رحمه الله تعالى: "رحم الله عبداً وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر".

إخوتي في الله، محاسبة النفس بعد العمل ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبة النفس على عمل أداه هل قصر فيه؟ فلا بد من كل عمل أن يكون خالصاً لله تعالى وموافقاً لهدي رسول الله، وأن يحسن في أدائه.

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد لم فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحاً، أو أراد به الدنيا وعاجلها؟ فيخسر ذلك الربح ويفوته الظفر به (١٩).

(١) (صحيح) أخرجه (حم) وصححه الألباني في س.ص ١٤٩٦.

ولقد ذكر الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى أن محاسبة النفس تكون كالتالي:

أولاً: البدء بالفرائض، فإذا رأى فيها نقصاً تداركه.
ثانياً: ثم المناهي، فإذا عرف أنه ارتكب منها شيئاً تداركه بالتوبة والاستغفار والحسنات الماحية.
ثالثاً: محاسبة النفس على الغفلة ويتدارك ذلك بالذكر والإقبال على الله.

رابعاً: محاسبة النفس على حركات الجوارح، وكلام اللسان، ومشى الرجلين، وبطش اليدين، ونظر العينين، وسماع الأذنين، ماذا أرادت بهذا؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجه فعلته (١٩).
معاشر الإخوة، لمحاسبة النفس فوائد جمة منها:

١ - الاطلاع على عيوب النفس، ومن لم يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته.

٢ - التوبة والندم وتدارك ما فات في زمن الإمكان.

٣ - معرفة حق الله تعالى فإن أصل محاسبة النفس هو محاسبتها على تفریطها في حق الله تعالى.

٤ - انكسار العبد وزلته بين يدي ربه تبارك وتعالى.

٥ - معرفة كرم الله سبحانه وتعالى وعفوه ورحمته بعباده في أنه لم يعجل عقوبتهم مع ما هم عليه من المعاصي والمخالفات.

٦ - مقت النفس والإزراء عليها، والتخلص من العجب ورؤية العمل.

٧ - الاجتهاد في الطاعة وترك العصيان لتسهل عليه المحاسبة فيما بعد.

٨ - رد الحقوق إلى أهلها، وحسن الخلق، وهذه من أعظم ثمرات محاسبة النفس (١٩).

وهناك أمور تعين الإنسان على محاسبة نفسه منها:

١ - معرفته أنه كلما اجتهد في محاسبة نفسه اليوم استراح من ذلك

غداً، وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً.

٢ - صحبة الأخيار الذين يحاسبون أنفسهم ويطلعونه على عيوب نفسه، وترك صحبة من عداهم.

٣ - زيارة القبور والتأمل في أحوال الموتى الذين لا يستطيعون محاسبة أنفسهم أو تدارك ما فاتهم.

٤ - حضور مجالس العلم والوعظ والتذكير فإنها تدعو إلى محاسبة النفس.

٥ - قيام الليل وقراءة القرآن والتقرب إلى الله تعالى بأنواع الطاعات.

٦ - البعد عن أماكن اللهو والغفلة فإنها تنسي الإنسان محاسبة نفسه.

٧ - ذكر الله تعالى ودعاؤه بأن يجعله من أهل المحاسبة والمراقبة.

٨ - سوء الظن بالنفس (١٩).

أخي الحبيب، كم صلاة أضعتها؟.. كم جمعة تهاونت بها؟.. كم صيام تركته؟.. كم زكاة بخلت بها؟.. كم حج فوتته؟.. كم معروف تكاسلت عنه؟.. كم منكر سكت عليه؟.. كم نظرة محرمة أصبتها؟.. كم كلمة فاحشة تكلمت بها؟.. كم أغضبت والديك ولم ترضهما؟.. كم قسوت على ضعيف ولم ترحمه؟.. كم من الناس ظلمته أو أخذت ماله؟ (١٩).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» (١).

(سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك)

(١) (صحيح) أخرجه (م) ٢٥٨١.